المكتبة الثقافية

٥٣

النيل الخالد

الدكتور محمد محمود الصياد

١٥ يناير ١٩٦٢

المكتبة الثقافية

- اول مجموعة من نوعها تحقق اشتراكية الثقافة .
- تيسر لكل قارىء ان يقيم فى بيته مكتبة جامعة تحوى جميع الوان المعرفة باقلام اساتذة متخصصين وبقرشين لكل كتاب .
- تصدر مرتين كل شهر . فى اوله وفى منتصفه

الكتاب القادم

قصة التفسير

احمد الشرباصى

أول فبراير ١٩٦٢

دار القلم بالقاهرة

الثمن ٢ ص

المكتبة الثقافية

٥٣

النيل الخالد

الدكتور محمد محمود الصياد

وزارة
الثقافة والإرشاد القومي
الإدارة العامة للثقافة

١٥ يناير ١٩٦١

الناشر

دار القلم

١٨ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة

ت ٥٥٠٣٢ — ٧٧٧٤١

بسم الله الرحمن الرحيم

تصــــدير

ما ارتبط قوم بنهر ارتباطنا بالنيل .

لقد عرفناه منذ فجر التاريخ نهرا مبارك الغدوات ، ميمون الروحات .

وعرفنا له الجميل منذ عشنا على ضفافه ، فكان له في نفوسنا حب بلغ حد العبادة فى حقبة من تاريخنا الطويل .

والنيل نهر عظيم ، جدير بكتاب عظيم

ولكن المكتبة الثقافية لا يسمح حجم كتبها بالوفاء بحق النهر الكبير .

بيد أن هذا لم يكن ليحول دون أن تضم كتابا يتحدث عن النيل .

وهذا مقال يعرف « بالنهر الخالد » تعوزه التفاصيل ولكنى أرجو أن يعطى الصورة العامة فى جلاء ووضوح .

وعلى الله قصد السبيل .

٨ يناير ١٩٦٢ — م . م . الصياد



الأم الرؤوم

غير بعيد من خط الإستواء وفى وسط إفريقية العظيمة يولد النيل الخالد : تلده أم وقور ما كانت تظن حين جاءها المخاض أن سيكون لوليدها شأن ، وأنه سيصنع التاريخ . وما دار فى خلدها أن ابنها سيكون خير أنهار الدنيا وسيدها جميعاً ، وأنه سيخلق حضارة تزداد جلالا مع الأيام ، وسيعرف له قومه ما أفاء عليهم من خير فإذا بهم يؤمنون بعظمته ، ويقدسون اسمه ، فلا يذكرونه إلا وحوله هالة من الإجلال والتقديس . وحق لهم أن يجلوه فما عرفوا منه إلا الروعة التى تخلب العقول ، والعظمة التي ليس وراءها عظمة ، وخليق بهم أن يحتفلوا به فما كان مذ جرى فى ديارهم إلا الوفي السماح .

تباركت يارب ! وحمداً لك يانيل !

تباركت يارب ، ما أكرمك وما اعظم آلاءك .

أردت لمصر الخلود فأجريت لها من أقصى الأرض الكوثر الفياض .

وحمداً لك يانيل ، ما أنبلك وما أوفاك !

قطعت المسافات الطوال لتجعل من مصر جنة وارفة الظلال .

تباركت يارب ، وشكراً لك يا أم النيل !

أنجبت فأكرم بالمنجبة والنجيب .

ولكنهم ظلموك في المشيب فأطلقوا عليك اسما لا يمتين له برحم !

لقد نسبوك — لا سامحهم الله — إلي فكتوريا وأنت منها ومن أهلها براء !

ألا ما أجمل اسمك القديم « بحيرة أوكروى » الذى عرفت به منذ أن عاش على ضفافك إنسان ، ولكنك ذات الأصالة والمجد مهما تغيرت الأسماء .

يا ابنة هضبة البحيرات لنرجع معا ملايين السنين لنقرأ سفر تاريخك المجيد ، لقد زلزلت أرض إفريقية فى عهد سحيق فانشقت عن أخدود عظيم امتد شمالا حتي وصل إلى أرض فلسطين وتكونت فيه بحيرات هن لك أخوات غير شقيقات ، وتدفق على جوانبه حمم البراكين فتراكم جبالا شامخات ، تسهر على رعايتك

أنت وأخواتك بلا سأم ولا كلال ، وكنت أنت مكان القلادة من العقد فتفرع على جانبيك الأخدود ، وامتد فرعه الشرقى ليكون فيه حوض البحر الأحمر وخليج العقبة والبحر الميت وغور فلسطين ، وامتد فرعه الغربى ليكون فيه شقيقاتك إدورد وألبرت و بنات عمومة أخريات .

ونشأت يافكتوريا فى منخفض من الأرض تبلغ مساحته ٦٩ ألف كيلو متر مربع فاذا بك أكبر مسطح من الماء العذب فى العالم القديم ، تمتدين على ثلاث درجات و نصف من درجات العرض وتقبعين على ارتفاع ١١٣٥ مترا فوق سطح البحر ، وإنك لبحيرات عميقة متوسط عمقها ٤٠ مترا وتقل فيها الجزر فلا تتجاوز الأربع فى المائة من مساحتها الضخمة ، ويختلف مستوى الماء فيك من وقت إلى آخر ، يختلف مع الليل والنهار ، ويختلف من موسم إلى موسم ، ذلك لأن عظم اتساع السطح المائى يؤدى إلى وجود تيارات بحرية وبرية أشبه بنسيم البحر والبر ، وهذا بالإضافة إلي تغير الضغط الجوى وتأثير الجاذبية تحدث نوعا من المد والجزر يغير من مستوي سطح الماء ، ولكنها حركة ليس لها اضطراد حركات المد والجزر التى تعرفها البحار ، بل حركة غير منتظمة ولكنها قد تصل باختلاف المنسوب إلى نحو ستين سنتيمترا .

أما الاختلاف الموسمى فيرجع إلى تغيرات المناخ ، فيرتفع مستوى الماء عقب فصل الأمطار الغزيرة فى مايو ويونية ، وفى أكتوبر ونوفمبر . وينخفض عندما تقل كمية المطر الساقط . ومتوسط هذا الاختلاف نحو ثلاثة أمتار وربما بلغ الخمسة في بعض الأحوال .. وربما كان الاختلاف لسنة أو لعدة سنين ، ويقولون إن السبب فى هذا هو ظهور الكلف على وجه الشمس ويربطون بين الظاهرتين ولكن تعليلهم لايزال مجرد افتراض يحتاج إلي البراهين التي تخرج به إلي فلك الحقيقة .

واختلفت يا فكتوريا عن أخواتك بحكم النشأة والتكوين ! فهن طوال ممشوقات وأنت لك من بسطة الجسم حظ موفور . وهن تقترب من ضفافهن الجبال العالية فلا تترك بينها وبين ماء البحيرات إلا الضيق من السهول . وربما زحفت الجبال علي السهل الضيق لتغسل أقدامها بالماء الطهور ، ولكن الجبال خشيتك فوقفت تتطلع إليك من بعيد فكان بينك وبينها سهول تجرى فيها الأنهار ويعيش من حولها الناس .

وما أكثر الأنهار التي تنحدر إليك حاملة ما استطاعت أن تحمله من الماء ، وهى قد تختلف فى طولها وقد تكون موسمية أو دائمة الجريان ، ولكنها فى كل الحالات يملأها الإيمان بك والوفاء

لابنك العظيم ، فمن جبال الجون فى الشمال الشرقى ينحدر نهر « نزويا » واخوان لهم صغار ، ومن الشرق تنحدر من الحافة الغربية للإخدود الشرقى أنهار « كوجا » « ومارا » «وروانا» ، ومن الجنوب ينحدر نهر مميو وأنهار أخر غير ذات شأن ، وإذا كان ساحلك الشمالي لا تدخله الأنهار لانحدار الأرض نحو الشمال فإن ساحلك الغربى يسعد بوصول كاجيرا العظيم ، إنه النطفة التي تتخلق فيما بعد لتكون النيل الخالد . إنه يجمع مياه المضبة الواقعة إلى الغرب ويحرص عليها لمسافة ٧٠٠ كم حتي يقدمها هدية لك طيبة ، إنه يبدأ من عند دائرة العرض الرابعة جنوب خط الاستواء ويتجه من الجنوب إلى الشمال حاملا اسم روفوفو حتي يلتقى برافد يأتيه من جبال مفمبيرو ، ثم يواصل سيره باسم كاجيرا حتي دائرة العرض الأولي جنوبى خط الاستواء . ثم يدعوه الشوق إليك فينحرف علي غير انتظار متجها نحو الشرق حيث ينتهى إليك بدلتا صغيرة ، وإنه لشبيه بالنيل ابنه البكر يبطء جريانه في وسط الطريق فتكثر به البطائح والمناقع فاذا ما اقترب منك جري إليك فى سرعة لعله يعوض مافات .

ومن حولك الجبال تطاول أعنان السماء ، من حولك الجون ومفمبيرو ورو نزورى ؟ ويقف الجون فى الشمال الشرقى منفرداً

وكأنه وقد تغطى بالغابات كبير أناس فى بجاد مزمل كما يقول شاعر العرب الأكبر امرؤ القيس ويبدو فى شكله المخروطى الذى يرتفع نحو ٣٤٠٠ م وكأنه راهب دير يتعبد فى عزلته لرب السماء؛ ومن يصدق أن بركانا تنشق عنه الأرض يكون هذا الجبل العظيم الذي يزيد قطره علي الخمسين كيلو متراً وتتسع فوهته فتتجاوز ستة عشر كيلو مترا ، وهو بعد ليس له قدم البراكين الإفريقية الأخرى بل إنه بركان حديث ، تدل على ذلك فوهته التى لا تزال تحتفظ بالشىء الكثير من معالمها .

وفى أقصى الغرب تقوم جبال مفمبيرو وتشبه الجون من ناحية التكوين ولكنها أكبر سنا ، وهى مجموعة من البراكين عددها ثمانية تكونت فى الأخدود الغربى بين بحيرتى كيفو وادورد فغيرت من معالم الأخدود وفصلت بين المياه التي تنصرف إلي البحيرتين ، فحالت بين بحيرة كيفو وشرف الاتصال بالنيل .

وفى الشمال الغربى جبل يتعمم بالثلج علي مدار العام ويراه القوم وقد سطع عليه القمر فعكس أضواء توقظ نائم الخيال ، وفى بساطة شاعرية يعتقدون أن هناك صلة بين جبلهم والكواكب الوضاء ، فيطلقون علي رونزورى اسم جبل القمر وهو اسم طالما تردد فى كتب القدماء عندما يتحدثون عن منابع النيل .

ويختلف رونزورى عن زميليه ، فما هو مما صنعت البراكين ، ولكنه يتكون من الصخور النارية التى تتكون منها الهضبة الافريقية ، الأمر الذى يحير الباحثين عن سر تكوينه وقيامه شامخا فوق الهضبة . ويرى بعضهم أنه نشأ بسبب التواء فى قشرة الأرض حديث ، ويمتد الجبل الذى يتجاوز ارتفاعه الخمسة الآف متر نحو مائة كيلو متر فى شرق الأخدود الغربي بين بحيرتى ادورد وألبرت وينحدر انحداراً شديداً نحو الغرب ولكن انحداره نحو الشرق أسهل وأيسر ، وتنصرف كل مياهه إلي نهر النيل سواء ماسقط من السماء مطراً او ذاب من الجليد منحدراً علي السفوح .



(شكل ١)

في المهد

(هضبة البحيرات)

في المهد

الساحل الشمالى لبحيرة فيكتوريا يخرج النيل الوليد بغير صخب ولا ضوضاء ، ولكنه سرعان ما يعلو هدره وضجيجه ، وهذه هى دائماً طبيعة الأطفال ، لقد صفعه حاجز من صخور الديوريت اثار فيه كامن الحياة . فإذا به يركل الحاجز بقدميه حتى يشق فيه فتحات ثلاثا يهوى منها إلى مجرى ضيق عميق ، إنها شلالات ريبون التى تقع إلى الشمال من جنجا غير بعيد من بداية الطريق الطويل الذى يستعد النهر لسلوكه ، ويسرع النهر فى سيره بعد أن حددت له معالم الطريق ضفاف من الصخر عالية تكتنفها الغابات ذات الأشجار الضخمة الدائمة الاخضرار وقد خيم عليها صمت رهيب ، ويمضى النهر الطفل يرغى ويزبد سعيداً بالحياة ، ويسقط من شلالات أوين ، وعندها يتلقى الدرس الأول فى تهذيب السلوك ، فقد اقيم عليه وهو لا يزال فى أول حياته سد عظيم تم إنشاؤه فى سنة ١٩٥٤ ليوفر الكهرباء لأوغندا ويخزن المياه لمصر ، وعلى إنشائه اتفقت حكومة مصر الوطنية والحكومة التى تفرض نفسها فرضاً

فى اعالى النيل . وسعة الخزان مائة مليار من الأمتار المكعبة يمكن الاستفادة منها كرصيد ينفع عند الحاجة .

ويمضى النهر إلى غايته مسافة ستين كيلو متراً ثم يدركه شىء من الوهن ، لقد ودع أمه منذ قليل ، ولكنه سقط من حالق ، فهبط نحو مائتى متر بين المساقط والمندفعات ، وها هى ذى ضفافه تتباعد بالتدريج حتى تتجاوز الشقة بينها الكيلو متر أو تزيد ، وها هو ذا النهر يتمطى وقد اصبح عمقه أقل من ثلاثة أمتار ، وهاهى ذى المناقع تحف به على الجانبين وقد تغطت بنبات الماء ، إنه هدوء الشيخ يصطنعه ولا يزال فى فجر الطفولة ، وسيكرر هذا الأمر فيما بعد مرات ، برغمه على ذلك نوع الحياة التى كتب عليه أن يحياها ، وكلما تقدم النهر زاد بطؤه وضعف تياره فكأنما يقدم رجلا ويؤخر أخرى قبل أن يطرق باب « بحيرة كيوجا » ، وماله يخشاها ويرهبها وما هى سوى مستنقع كبير ، ويمر بأطراف البحيرة وقد ضاع مجراه بين المناقع ونبات البردى الطويل السيقان. ولكن يظل للمجرى شخصيته المستقلة ويمضى يتحسس الطريق خمسة وسبعين كيلو مترا حتى يترك البحيرة ولكنه يظل فى هدوئه حتى يمر بأطراف بحيرة أخرى صغيرة هى « بحيرة كوانيا » التى تتصل بكيوجا من جهة الشمال.

ويكون قد قطع من رحلته نحو مائتين وخمسين كيلو مترا حينما يتصل به نهر كافو الآتى من نواحى الحافة الشرقية لبحيرة البرت ، ويتحول النهر فجاة إلى الشمال وقد صحا من غفوته ودب فى جسمه النشاط ، وما هى إلا مسافة محدودة حتى يغير النهر اتجاهه مرة أخرى فيولى وجهه شطر الغرب ، وكأنما يبحث عن المتاعب فهو بهذه الحركة يدخل تحت نفوذ منطقة شلالات مرتشيزون وتعترضه جنادل عدة أكبرها « جنادل كروما » ولا تبعد بأكثر من عشرة كيلو مترات من بداية طريقه الغربى ويتدافع الماء فى النهر ويهدر ، ويعود إلى عبث الطفولة الذى كان قد تخلى عنه إلى حين ، وسبحان من يخلق من الضعف قوة ؛ لقد أثاره أن يعترض الصخر طريقه وهو يسير إلي خالته الشابة بحيرة البرت ، ولا يثير الأنهار فى طفولتها شىء كعناد الصخور . وينقض النهر فى فترات متعاقبة فوق شلالات مرتشيزون التى تقوم على الحافة الشرقية للأخدود الغربى ويضيق مجراه إلى حد لا يتصور ، فيصبح أقل من عشرة أمتار وتحتبس المياه فى هذا المجرى الضيق فيكون لها صخب وهدير ، وتسقط فى قوة وعنف من ارتفاع يزيد على الأربعين مترا ويتناثر الرذاذ فلا تدرى اهو من النهر

أم مطر يسقط من السماء ، و يتحلل الضوء فترى فيه من الوان الطيف ما يبهر الأنظار .

ويعود النهر يسترد انفاسه وقد انتصر على الصخور ، ويتسع مجراه وتتباعد الضفاف ، وتمرح فى مياهه أعداد ضخمة من التماسيح و بقر الماء وتعود المناقع تحف بجانبيه ، وربما تكونت فى مجراه بعض السدود ، ويرتمى فى أحضان بحيرة البرت وهو يلهث فيجد عندها الراحة والأمان .

وتقع بحيرة البرت فى الأخدود الغربى ، وكان لها قبل الاستعمار اسم جميل،كان القوم من حولها يسمونها « لوتا نزيجا » أي الضياء الذى يقتل الجراد . وكانوا يستوحون الفطرة السليمة وحدها حينما أطلقوا هذا الاسم ، فالبحيرة باتساعها وبما يحيط بها من شاهق الجبال لا تقوى أرجال الجراد على عبورها ، وعسى الاسم القديم يعود ، يوم يسترد القوم استقلالهم المفقود .

وتنبسط مياه البرت على مساحة ٥٣٠٠ كيلو متر مربع فهى أصغر من أختها فيكتوريا بكثير ، وتمتد بين خطى عرض ١° درجة ، ٢٠ ٢° شمالا على ارتفاع ٦٢٠ مترا فوق سطح البحر ويتراوح عمقها بين ٣٥ ، ٤٥ متراً ولكن اجزاءها الشمالية

الشرقية تقل فيها الأعماق كثيرا ، ويقل العمق كذلك فى أقصى الجنوب ولذلك يقدر متوسط عمق البحيرة باثنى عشر مترا . وتستقيم سواحل البحيرة فلا تتعرج ، وترتفع جوانبها عالية خالية من المستنقعات ، وتكون حافة الأخدود نصف هذه السواحل ، فترتفع الأرض مباشرة جوار الماء . ويتجاوز الارتفاع فى بعض الأحوال الألفى متر ، وماء البحيرة لا يزال جد قريب . وترى هذا بصفة خاصة فى الجانب الغربى من البحيرة ، وفى مثل هذه الظروف تتعذر السكنى إلا فى جهات محدودة للغاية ، وتنعدم الأنهار فليس لها أرض تجول فيها وتصول ، وتجد مياه المطر الغزيرة طريقها إلى البحيرة فى مسايل قصيرة سريعة الجريان ذات اودية ضيقة عميقة .. ويدعو اقتراب الجبال من البحيرة إلي التفكير فى استخدامها كخزان للمياه لا يترتب عليه إغراق مساحة فسيحة ، ولا يتعرض فيه مسطح مائى واسع للتبخير .

والحافة الشرقية للبحيرة على خلاف الحافة الغربية فهى مرتفعة فى الجنوب فقط ، ثم تنخفض إلى حد كبير وتترك بينها وبين مياه البحيرة سهولا ساحلية مستوية ربما تجاوز عرضها العشرة كيلو مترات ، وقد غطتها رواسب من الطمى حملتها الجداول الكثيرة التى تنحدر من هذا الجانب ، وتخلو البحيرة

من الجزر وتخلو جوانبها من المناقع حتى فى السواحل المستوية ، ولا يستثنى من ذلك إلا أطرافها الشمالية عند مصب فيكتوريا .

ويدخل البحيرة فى الجنوب نهر سمليكى الذى اتخذ من سيرة النيل الأعظم مثلا يحتذيه ، فكان له رغم قصر مجراه كل ما للنيل الكبير من صفات ، وأنه ليخرج من بحيرة إدورد كما خرج النيل من فكتوريا ، وأنه ليبدأ رحلته هادئا رزينا ثم يعنف إلى حين، فإذا ما اقترب من بحيرة البرت عاد إليه هدوؤه القديم ، ويسير نهر سمليكى فى الأخدود إلى الغرب من جبال رونزورى المعممة بالسحاب ، ويقطع فى رحلته ٢٥٠ كيلو مترا معظمها فى أراضى الكنغو التى كانت حتى عهد قريب نهبا لبلجيكا والبلجيكيين ، ويسقط النهر فى رحلته نحو ٢٩٦ مترا ، يهبط معظمها فى الشلالات والمندفعات التى يعانى منها وهو فى مجراه الأوسط يسير ، فإذا ما انكشفت الغمة ووصل المجرى الأدنى سار على مهل وراح يتثنى فى دلال ، وقل عمقه فما يتجاوز أربعة أمتار ، واتسع مجراه بعد ضيق فزاد على المائتين وخمسين مترا ، ويدخل بحيرة البرت بعدة مصبات أكثرها قليل العمق بسبب وجود الرواسب والحواجز الرملية ، ويتعذر أن تعين اى فرع له الصدارة بين الجميع ، وتكتنف النهر عند مصابه المناقع

ولكنها أقل عددا مما كان ينتظر فى مثل هذا الإقليم .

ومنشأ نهر سمليكى بحيرة إدورد التى تنبسط فى الأخدود الغربى على مساحة ٢٢٠٠ كيلو متر مربع على وجه التقريب ، وتقع على ارتفاع ٩١٤ مترا فوق سطح البحر ، وهى بحيرة بيضية الشكل تسير مع الاتجاه العام للأخدود ، من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى ، وسواحلها قليلة التعاريج وهى صفة تميز بحيرات الأخاديد ، وعلى الجانب الغربى للبحيرة ترتفع حافة الأخدود دون تدرج حتى تبلغ ارتفاع ٢٥٠٠ متر ، ولكن الارتفاع على الجانب الشرقى أكثر لطفا ، بيد أنه قد يشبه الساحل الغربى فى جهات محدودة تغسل فيها الجبال أقدامها فى الماء ، وتدخل البحيرة روافد من الجنوب والشمال وينصرف إليها معظم ما يسقط من مطر على جبال رونزورى ، والغرب لا أنهار فيه بعد ان زحفت الجبال إلى شواطىء البحيرة ، وينكسر الصخر فى شرق البحيرة فيكون قناة طبيعية طولها حوالى ٤٥ كيلومتراً وعمقها نحو خمسة أمتار ويتراوح عرضها بين ٥٠٠ ، ١٥٠٠ متر وهذا الانكسار هو بوغاز كازنجا الذى يربط بحيرة إدورد ببحيرة جورج ، ومجراه مستقيم لا عوج فيه ، وماؤه مخضر بما يتطفل عليه من نبات ، وفى موسم المطر

تنحدر المياه من بحيرة جورج إلى بحيرة إدورد بتيار ضعيف يكاد لا يحس إطلاقا فى موسم الجفاف .

وجورج التى يعرفها السكان باسم دويرو بحيرة صغيرة لا تزيد مساحتها على ٣٠٠ كيلو متر مربع ، ولما كانت سواحلها سهلية منخفضة فإن مساحتها تتغير مع الأمطار ، فهى تزداد فى موسم المطر وتنكمش فى فصل الجفاف ، وحينما تنطوى على نفسها تخلف وراءها المناقع والبطائح المائية فى كل مكان إلا على الساحل الغربى الذى تكتنفه الجبال . وفى مياه بحيرة جورج ملوحة ، وهكذا كل بحيرات الأخدود ، ويرسب هذا الملح فى البحيرات فلا يحتوى النيل عند خروجه على شىء منه ، وينتفع به السكان فيقايضون عليه بسلع اخرى هم فى حاجة إليها ، وعلى جانبى بوغاز كازنجا وفى شمال بحيرة إدورد عدد من البحيرات الصغيرة يوحى شكلها المستدير بأنها كانت فوهات براكين خالدة قبل أن تمتلىء بالماء .



من الطرف الشمالى الغربي لبحيرة البرت يخرج النيل حاملا الاسم الذى تحمله البحيرة ، ومخرجه منها قريب جداً من مدخله فيها ، ويكون نهراً واسع المجرى سهل الانحدار يسير فى تؤدة وكأنه يزحف ، وربما تباعدت ضفافه فاصبح اشبه ببحيرة منه بنهر ، وتتكرر الظاهرة فيبدو النهر كسلسلة من البحيرات يصل بينها مجرى مائى واسع ، وتحمل بعض هذه البحيرات أسماء ، ولكن معظمها يظل بلا اسم ، وأهمها جميعا بحيرة « روبى » التى تمتد لمسافة ١٣ كيلو مترا على عرض يتراوح بين الكيلو متر الواحد والخمسة كيلو مترات ، ويصل إليها النيل بعد أن يكون قد قطع اربعين كيلو متراً من مخرجه من بحيرة البرت ، وفى شمالها يضيق النهر فلا يزيد عرضه على مائة وخمسين مترا ، وفى هذه الأنحاء تقوم بلدة

وادلاى ، وبعدها يعود النهر مرة أخرى إلى الاتساع . ويرفد النهر وهو يختال ، عدد من مجارى الماء ولكنها ضعيفة لا تترك فيه سوى الأثر الطفيف ، وتختلف جوانب النهر من مكان إلى مكان ؛ فقد تقبل عليه حافة الأخدود فإذا بجوانبه صخرية عالية ، وقد تدبر عنه فتنخفض الضفاف وتكثر المستنقعات وأكثر ما تكون هذه الصورة فى المنطقة الوسطى من النهر .

وتقترب حافة الأخدود الشرقية من مجرى النهر فى منطقة شلالات مرتشيزون ، ثم تنحرف بعدها إلى الشمال الشرقى فتصبح على بعد منه ، ولكن الحافة الغربية على عكس ذلك فهى أكثر ظهوراً ووضوحا ، وكثيراً ماتدنو من مجرى النهر ، وعند طرفها الشمالى يوجد جبل أوتسى ، وهو جبل بركانى منفرد يربو ارتفاعه على ألفي متر وعنده يبدأ نيل البرت يتجه إلى الشمال ويظل كذلك حتى نيمولى وهو هنا نهر سريع الجريان لا يزيد اتساعه على ٢٢٠ متراً .

وعند نيمولى يدخل النهر أراضى السودان الشقيق ، يدخل المديرية الاستوائية صغرى مديريات الجنوب الثلاث ، وعلى الحدود يغير النهر اتجاهه فجأة فيصبح الشمال الغربى قبلته ، ويترك هضبة البحيرات نهرا عنيفاً كأنما نكص علي عقبيه عائدا لطفولته ،

وله العذر . . فقد اعترض الصخر الصلب طريقه ؛ والصخور إذا اشتدت صلابتها فهى أكبر عدو لحياة الأنهار الوديعة المسالمة ، وتحتدم المعركة بين الماء والصخر ، وتنجلى عن عدد من الجنادل ومساقط الماء ، وتعترض النهر جزيرة صغيرة غير بعيدة من نيمولى ، ومن بعدها يدخل منطقة شلالات « فولا » أكبر عقبة يصادفها النهر من منبعه حتى المصب ، فعندها يضيق مجرى النهر حتى يكاد يختنق ، وتحيط به جوانب صخرية ملساء ترتفع إلى عشرة أمتار ، ومن ثم يكون انحدار الماء شديدا واندفاعه أشد ، وهذه قوة من قوى الطبيعة لا تزال مهملة ، ويوم يشتد ساعد السودان ستكون منبع بركة ومصدر خير وفير .

وفى هذه المنطقة يضطرب باطن الأرض ، فتتعرض للزلازل والبراكين ، وتنفجر فيها الينابيع الحارة يندفع منها الماء فى درجة الغليان ، وربما سالت مياه بعض تلك الينابيع إلى نهر النيل الذى يحمل بعد مروره بنيمولى اسماً جديداً يظل محتفظاً به لمسافة تربو على ثماني مئات من الكيلومترات . إنهم يسمونه بحر الجبل وما به من مميزات أنهار الجبال ميزة ، ولعلهم اطلقوا عليه هذا الاسم ليقووا من عزمه فلا يهن ، فهو بعد الرجاف اشبه بالملاكم توالت عليه ضربات غريمه ، ولم تعد أمامه سوى جولة أخيرة قد يفقد فيها الحياة .

وتختلف كمية المطر الساقط فى شرق النهر وفى غربه فتتراوح بين ٥٠ سم في كايوتا ومائة سم فى توريت ، وقد ترتفع فتصل إلى ١٥٠ سم كما هى الحال فى باى ومريدى ، على حين أن المنطقة فيما بين جبال ديدنجا والحدود الحبشية تتميز بالجفاف ، الأمر الذي يحتم علي سكانها أن يحيوا حياة بدوية أو شبيهة بالبدوية ، ولكن فيما عدا ذلك فالمنطقة تغطيها الغابات التي تختلف كثافتها باختلاف كمية المطر الساقط ، والسكان مستقرون إلا حينما تضطرهم زراعتهم المتنقلة إلى الرحلة عن أراضيهم التي أجهدت الزراعة تربتها .

وفى نهاية فصل المطر تغطى السهوب التى تمتد علي جانبي النهر حشائش طويلة خشنة تحرق في بداية فصل الجفاف ، اللهم إلا فى المناطق التى يبلغ فيها المطر أقصاه . وهذا الحريق السنوى يؤدى إلى نقص العناصر العضوية فى التربة ويعوق نمو النبات ، وتختلف كمية المطر الساقط فى المنطقة الواحدة من عام إلى عام ، وقد تحدث أشباه المجاعات بين الحين والحين نتيجة لقلة الأمطار ، ولا يكون هذا إلا فى مناطق محدودة تقع إلى الشرق من النهر الكبير .

ويتجمع السكان في السهول ، أما المناطق الجبلية فغير

مسكونة ، وإذا وجد السكان علي الجبال فهم هناك مكرهين لا مختارين . وهم قبائل وشعوب من أكبرها قبائل اللاتوكا والباريا والزاندى . ويسكن اللاتوكا فى شرق النيل وهم أصلا من عناصر « التركانا » التى منشؤها بكينيا . ثم هبطوا إلى أراضى جنوب السودان ، واحتكوا « بالأنواك » الذين يتكلمون لهجة شلكاوية فلم يستطيعوا التحدث إليهم فسموهم باللاتوكا وتعنى باللسان الشلكاوى « الصم الذين لا يفقهون حديثا » وبعد أن استقر اللاتوكا في أراضيهم تكاثروا وتشعبوا بطونا وعشائر ، وكان منها عشيرة سلكت سلوكا مختلفا في حياتها فأطلقوا عليها اسم « الباريا » اى الخوارج ويعيشون الآن علي ضفاف بحر الجبل فى جنوب أرض الدنكا ، وقد انتشرت لغتهم حتى أصبحت لغة كثير من القبائل كالفاجولو والكاكوا والكوكو والينا بجوارا .

أما الزاندى فيسكنون الهضبة التى تفصل بين مياه بحر الغزال ومياه نهر الكنغو ، ويربو عددهم على الأربعة ملايين يعيش منهم نحو ٥ ./ فى داخل حدود السودان ، أما غالبيتهم فتعيش في الكنغو ، وبالرغم من ان الزاندى يمتون باصولهم إلى عنصر الأقزام فإن اختلاطهم بالعناصر النيلية قد غير من صفاتهم ،

فهم متوسطو القامة ، سمر الوجوه ، سمرة تضرب إلى حمرة ، وليس الزاندى كمعظم سكان جنوب السودان من الرعاة ، بل يمارسون الزراعة ولهم فيها مهارة وقد ساعدهم على إتقانها التربة الخصبة والماء الوفير . ومن ثم كانت أراضيهم ميدانا لمشروع اقتصادى ضخم عرف باسم « مشروع الزاندى » مضت على إنشائه سنوات كان النجاح حليفه ، رغم الأغراض الاستعمارية الخفية التى كانت من ورائه ، يوم ان كان الاستعمار يوقن أنه بلا نهاية .

وعلى ضفة النهر تقع مدينة « جوبا » اكبر مدن جنوب السودان ويبلغ عدد سكانها نحو العشرين الفا وعندها تنتهى الملاحة النهرية التى تربطها بالشمال ، وتتفرع منها شبكة واسعة من الطرق هى أحسن طرق السودان جميعاً ، فهى صالحة للاستعمال على مدار السنة وكلها مما يصلح للنقل بالسيارات . فمنها طريق يمتد إلى توريت ونيمولي علي حدود أوغندة فيربط السودان مع النقل المائى والسكك الحديدية فى أوغندا وكينيا وقد تم إنشاء هذا الطريق فى سنة ١٩٢٨ وفائدته المباشرة للسودان قليلة ولكنه يمثل حلقة هامة فى شبكة المواصلات بالإمبراطورية التى كانت تحلم بريطانيا بإقامتها فى إفريقية ، ومنها طريق آخر

إلى « أبا » فى الكنغو ، وحركة النهر على هذا الطريق مما تقوم به الحكومة وهى حركة آخذة فى الازدياد التدريجى ، وستنمو وتنشط يوم ان يجتاز الكنغو المحنة التى فرضها عليه الاستعمار ويحصل على استقلاله كاملا غير منقوص ، أما الخرطوم العاصمة الأم فى الشمال فلا طريق يربطها بجوبا عاصمة الجنوب . وهكذا يكون الدليل المادى على النية الخبيثة التى كان يبيتها الاستعمار لفصل جنوب السودان عن جسم الوطن الأكبر وربطه بجيرانه من المستعمرات .



عند الرجاف ينتهى اضطراب باطن الأرض ، وعندها يقوم جبل مخروطى الشكل تهزه الزلازل بين الحين والحين ، وللسكان تفسيرهم الطريف لهذه الهزات ، فالجبل فيما تروى أساطيرهم نشأ فى الشمال ، ثم حملته الريح فيما تحمل إلى حيث هو الآن ، ودفن تحته مئات من الناس وألوفا من رءوس الماشية ، وبين الفينة والفينة يحاول الناس وقطعانهم النهوض من تحت الجبل فلا يستطيعون إلا أن يهزوه .

وبعد أن يغادر النهر الرجاف يعاوده هدوؤه ، فيصبح نهرا بطيئا واسع المجرى تعترضه كثير من الجزر ، ويبدو وكأنه فى نهاية الطريق ، وتكثر على جوانبه نباتات البردى والبوص وأم الصوف وتنتهى الغابات ، فالنهر على أبواب منطقة غريبة عليه ، منطقة ما كان لها أن تعترض نهرا وهو لا يزال فى المراحل الأولى من الطريق .

ويمر النهر بمحنة قاسية تلازمه حتى يبلغ الدائرة العاشرة من دوائر العرض ، ولو أنه أنهى حياته عند تلك النقطة لما كان فى ذلك عجب ، فهو لا يصل إليها إلا بعد رحلة شاقة يغالب فيها الموت ، ويلقى من العقبات والمصاعب أكثر مما تحمل طاقة أى نهر حتى يكاد يلفظ أنفاسه فى كل ميل ، ولكنه النيل له سحر وفيه قوة ، ولكنه النيل المحب لمصر وفى سبيل الحب يهون كل بلاء ، ولكنه النيل النهر الطموح الذى يصر فى عناد على أن يكون أضخم الأنهار وأعظمها حظاً من الطول . ولكنه النيل تغرى الريح العداوة بين مائه و بين التراب الذى يمسك هذا الماء ثم يمتد على الجانبين منبسطاً رتيبا ، فيشتد الصراع و يعنف ، ويقوى النضال ويحتدم ، ويستلب الماء من التراب مزقا يكون منها جزراً صغيرة يمتلىء بها مجراه ، فتخفف من حدة المعركة ، ولكنها تضع دعائم فوضى شاملة ، فإذا بالنهر كالشبح المسحور تراه هنا وهناك ، وإذا بمياهه تلغى كل ما ينظم علاقتها بالأرض ، فتنساب في قنوات ومناقع وغدران يلفها الغموض فلا تعرف كيف تبتدىء ولا إلى أين تنتهى ، وإذا بالجزر يثبت بعضها فى الأرض فلا تتحرك ، ويندفع بعضها مع التيار حتى يصل إلى منعطف فى النهر او منعرج فيقف ليكون سدا حاجزا ،

وهى كلها ثابتة أو متنقلة ، تنمو فيها أخلاط من النبات تتراكم بعضها فوق بعض حتى تتلبد، وقد تسمك حتى يبلغ ارتفاعها خمسة أمتار فى كثير من الأحايين .

إن النهر هنا فى « منطقة السدود » وإنه ليخترق الستار الذى ظل لآلاف السنين يحجب وراءه أسرار منابع النهر المقدس ، حتى أراد الله لحضارة مصر أن تنتصر على الطين والنبات فتغلغلت فى السدود ووصلت إلى بحيرات خط الاستواء تحمل شعلة ما كان أسعد إفريقية لولم يطفىء الاستعمار الأوربى نورها .

يدخل النيل أرض السدود عند « شمبة » وهى محلة صغيرة تقع على بعد أمتار من مجراه، ويختلف إليها القوم للبيع والشراء ؛ ويخيم الصمت ، وتقلب الطرف فلا ترى إلا بساطا من العشب يتموج ، أو بلاشين يض على الماء الهادىء تحوم ، وتقل المخلوقات إلا ما كان منها يعيش فى الماء أو يزحف على الأرض ، ولا يدنو الإنسان أو الحيوان من النهر إلا فى مناطق محدودة ، فقد يخطىء الحيوان التوفيق ، ويغره العشب المشتبك فلا يعرف ما تحته ، ومن ثم يغترز ويغوص ، ولكن كائنا واحدا يألف تلك المنطقة ويطيب له فيها العيش ، إنه النمل الأبيض ، يبنى مساكنه تلالا عالية ، ويحفر فيها السراديب والدهاليز ، ويقتات

بما يقرض من خشب وشجر ، ويجد فيه السكان غذاء شهيًّا فيحفون لجمعه والتقاطه عندما يخرج من مساكنه عند سقوط الأمطار .

ومنذ مغادرة « شمبة » لا تمر بمحلة مسكونة حتى تصل إلى « أدوك » وفيها تبدأ مؤثرات حضارة الشمال فى الظهور فتزداد نسبة الذين يرتدون نوعا من الملابس إذ لم يكتف الاستعمار بثالوث الجهل والفاقة والمرض فأضاف إليه العرى كذلك . وتقترب رويداً رويدا من بحيرة « نو » أو « مقرن البحور » كما قد تسمى ، فعندها أو غير بعيد منها تنتهى الروافد الثلاثة التي تعين نظام النيل فيدخلها بحر الجبل وبحر الغزال وينتهى إلى الشرق منها بحر الزراف .

وإذا كانت أرض بحر الجبل قد انبسطت فى سهول فساح يغمرها الماء فلا تصلح سكنى الإنسان ، فإن إلى الشرق منها أرض بحر الزراف ، وهى ثابتة مرتفعة مسكونة إلى حد ... أنها أرض «النوير» الذين ينتشرون بين بحر الغزال ونهر السوباط ، يزاولون حرفة الرعى ولا يأنفون كغيرهم من الزراعة ، لهم قطعانهم الضخمة من الماشية والأغنام ، ولهم زراعاتهم البسيطة من الذرة الرفيعة والدخن ، ولكن البيئة التى يعيشون فيها

موحشة قاسية ، ومن ثم كان لا مناص لهم من الاستعداد المستمر لمواجهة مصاعبها ومتاعبها ، فلا عيب عليهم إذن أن كان فى طبعهم غلاظ ، أو كانت في معاملتهم جفوة ، فليس أقوى من البيئة فى تشكيل الطباع وتوجيه السلوك .

ويمرن فتيان النوبر على تحمل المشقة منذ الصغر . ويقام حقل تختبر فيه شجاعتهم وهم فى سن المراهقة بين الثالثة عشرة والسادسة عشرة من عمرهم ، تلك هى حفلة « الجار » أو حفلة « التشليخ » ، وفيها تزين جباه الفتيان بخطوط أفقية عميقة من الوشم تظل قرابة شهرين حتى تندمل ، ويظهر المرّاد جلدا وشجاعة خلال تلك العملية المؤلمة فلا نحيب ولا صراخ ، وتدعى الفتيات لشهود الحفل حتى يرين بأعينهن مظاهر الشجاعة وقوة الاحتمال التى يبديها اللدات والأتراب ، والويل الويل لمن خارت عزيمته فظهر عليه الخوف والاضطراب ، إن اسمه يصبح مضغة فى الأفواه ، وقلما يذكر بخير أو يظفر بتقدير . . . إنها المرأة دائماً تثير النخوة ، وتدفع إلى التضحية فى صبر واحتمال ، وقديماً ود عنترة تقبيل السيوف لأن لها بريقا يذكر بجبينة الفؤاد .

ولقد ذكرتك والرماح نواهل

منى ، وبيض الهند تقطر من دمي

فوددت تقبيل السيوف لأنها
لمعت كبارق ثغرك المتبسم

امتاز النوير بالشجاعة والمنعة وعزة النفس ، فلم يقبلوا الخسف الذى أراد أن ينزله بهم أحد حكامهم من أصحاب العيون الزرق يوم أن كان للعيون الزرق حكومة فى السودان ، فثار القوم وزادت ثورتهم حينما رأوا رغبته الصادقة في إذلالهم فمزقوه إربا ، وحمل كل فرد جزء منه فى حربته وراح يرقص فى زهو ونشوة ، وثارت حكومة الاستعمار فى الخرطوم فراحت تعيد تمثيل الرواية التي أخرجها على المسرح المصرى أستاذهم الأكبر اللورد كرومر يوم أن أصابت شمس دنشواى أحد جنود الاحتلال بضربة قوية قضت عليه ، فإذا به يعتبر الفلاحين مسئولين عن حرارة شمسهم فيزهق الأرواح على المشانق ، ويقطع بالسياط الجلود . . . أعادت الخرطوم تمثيل الرواية فى أرض النوير فجردت حملة لإخضاعهم واخذت بدم الضابط «فيرجسون» دم مئات من الشهداء ، ولم يستسلم النوير فى سهولة رغم كثرة ضحاياهم ، بل دافعوا ما استطاعوا إلى الدفاع سبيلا حتى انتصرت أسلحة البيض على شجاعة السود .

ولكن النوير وإن كان المثل يضرب بتهورهم فى جنوب

السودان قوم مؤمنون قدريون ، يرون أن مشيئة الله هى التى تنعم بالخير وهى التى تمتحن بالضرر ، ولا قدرة لمخلوق على مقاومة إرادة الخالق ، ولا سبيل لديهم إلا الدعاء فى خشوع ان يكشف الله عنهم السوء ، وأن يكف عنهم الأذى ، وحتى فى حالة الموت لا يشكو النويرى ولا يتوجع بل يستسلم لحكم القضاء ، ويدفن فى صدره آلامه وأحزانه مؤمنا بأن الروح لم تكن سوى وديعة استردها صاحب الودائع ..

ولا يدين النوير فى مجموعهم لزعيم واحد ، وإنما لكل فرع من فروعهم زعيم يعرف باسم « كورمون » أى صاحب الأرض ويتمتع بسلطة واسعة حتى إن قراراته لم تكن تخالف أبدا فى القديم ، ولكنه مع ذلك ليس حاكما مطلقا بل يصدر احكامه بعد استشارة المسنين من رجال العشيرة ، وإلى جانب صاحب الأرض يوجد « رئيس الماشية » وهو الذى يرتب حركاتها ويعالج ما يعرض منها ، وهناك رئيس الحرب وصانع المطر ولكل منهما وظيفة خاصة فى المجتمع النويرى .

ولا يميل النوير إلى مصاهرة غيرهم من القبائل ، ولكنهم يشترطون الزواج من خارج العشيرة ، فإذا مارغب الفتى فى الزواج من فتاة تعقبوا الأسلاف حتى الجد الرابع فإن لم يلتق

العروسان فى النسب أمكن زواجهما ، وتقضى العروس سنى زواجها الأولى بين اسرتها هى ، ويجيئها العريس زائراً ، وعليه أن يقوم بخدمة والدها فترة من الزمن قد تقصر وقد تطول بحسب الإتفاق ، وعليه أن يحترم حماته إلى أبعد حدود الاحترام ، وأن يظهر لها الطاعة الدائمة والولاء الخالص ، فإن لم تكن له حماة فعليه أن يقدم فروض الطاعة للأخت الكبرى للعروس .

وإلى الغرب من بحر الجبل نهر يتهادى ، وكأنما هو صوفى كهل فرغ من الدنيا ولم يعد يطمع إلا فيما يمسك عليه الحياة فبسط كفيه بما اختزن من مياه لتفيض على الجانبين فى حرية لم تخل من فوضى واضطراب ، ومن حوله أخوات له صغار ، راحت تتلمس إليه الطريق فضلت فى الضحاضح والمناقع فما اهتدت ولا وصلت إلى غاية ، ويجرى الجميع فى سهب واسعة تغطيها أصناف من الكلأ طويلة تكاد تسمع صفيرها حينما تهب الريح ، ومن البطائح يرتفع البردى الذى ضمن الفراعنة أوراقه مالهم من أمجاد ، وعلى الضفاف تماسيح تنام فى كسل واسترخاء وهنا وهناك قطيع من البقر الأحدب يخور ، وقد وقف راعيه السمهرى القوام على إحدى ساقيه ووضع الأخرى فوق ركبة

تلك الساق وراح يجيل الطرف فى ذلك البساط الممتد حتي نهاية الأفق .

هذا هو بحر الغزال وهذه هى الأرض التى يجرى فيها ، وليس الغزال نهرا فردا ، وإنما يطلق الاسم بعامة على مجموعة الأنهار التى تنحدر من سلسلة المرتفعات الفاصلة بين مياه نهر الأويلى أحد روافد الكنغو والمياه المنحدرة إلى حوض النيل ، ولكن الاسم يطلق بوجه التخصيص على مجرى الماء بين بلدة « مشرع الرق » وبحيرة نو ، وتحت مشرع الرق بنحو ثلاثين كيلو متراً يتسع بحر الغزال فيصبح غديرا يمتد نحو خمسة عشر كيلو متراً على عرض كيلو مترين ، ويعرف هذا الغدير باسم « بحيرة امبادى » وبالقرب منها يلتقى بالنهر الرئيسى رافده الجور أهم مجارى الماء فى المنطقة كلها ، ولعله النهر الوحيد الذى يتصل اتصالا دائماً ببحر الغزال إذ أن معظم الروافد الأخرى تفقد نفسها فى المناقع ومسطحات الماء .

وروافد بحر الغزال كثيرة العدد ، منها نهر النعام أو الرهل الذى يصل إلى شرق رمبيك ، ومنها نهر المريدى الذى يضل طريقه فى المناقع الممتدة جنوبي مشروع الرق ، ومنها نهر التونج وهو نهر كبير ولكنه محدود الأهمية لقلة ما يجرى فيه من ماء ،

ومنها نهر اللول الذى يتحد مع بحر العرب قبل أن يتصلا ببحر الغزال .

وأرض حوض الغزال منبسطة شديدة الاستواء ، وقد أوحى انبساطها للكثيرين بأن يعتقدوا أنها كانت قاع بحيرة قديمة انحسر عنها الماء حينما تم تكوين نهر النيل ، ويجرى ماء الأنهار على هذا السطح الرتيب يتهادى فى ضعف ، فلا هو يستطيع أن ينتزع من الطين ما يكون به ضفة ، وليس به من القوة مايساعده على أن يحتفر مجرى ، ومن ثم ينطلق الماء فى فوضى كلها إفراط وتبذير ،وهكذا تضيع مياه ما أحوج السودان ومصر إليها ، وآه لو عرف بحر الغزال !

وتغطي الغابات مساحات واسعة من الحوض ولكنها لا تزال مهملة ولاتلقى من العناية ماهى له أهل.ومن أشجارها الماهوجنى والحمرة والهجليج والدجدج والعرديب ، وتقوم زراعة بعض الغلات ولكن سخاء الطبيعة يقعد بالسكان عن التوسع فيها ولو أن الظروف اضطرتهم إلى العمل لاتسعت زراعتهم وزاد إنتاجهم،ويزرع الذرة والسمسم والفول السودانى ويستهلك منه ما يستهلك ويتبقى فائض يصلح للتصدير ولكن صعوبات النقل تحول دون التوسع فى هذا الميدان ، ويكثر عسل النحل وكان

الناس فى القديم يجمعونه من على الأشجار فلما زاد الطلب عليه بدأوا يربون النحل فى خلايا يصنعونها ، وأصبح محصول العسل يمثل جانباً هاماً من تجارة المنطقة؛ ولو بذلت العناية فى تربية النحل و نظمت تجارة العسل لأصاب القوم من ورائها خير كثير.

ويسكن حوض الغزال خلق كثير من شعوب « الدنكا » وهى شعوب نيلية يمتاز أفرادها بالقامة الفارعة مع استواء الرجل وامتداد الأعقاب ، وأكثر الدنكا من الرعاة يعنون بتربية الأبقار التى تحتل من نفوسهم مكانا ساميا حتى لتكاد تعبد وتقدس، ولطالما استغل النخاسون هذه العاطفة الفياضة نحو الحيوان فكانوا يقايضون عليه بالناس ، ولطالما نشبت الحروب والمنازعات بسبب أبقار سرقت أو نهبت ، وأقاصيص الدنكاوى واساطيرهم تروى الكثير عن سرقة الماشية وما تبعها من حروب .

ويحيا الدنكاوى لمواشيه ، إنه ليزينها بالأزهار فى الأعياد، وإنه ليرشها بالماء عند الحلب ليحفظها من الذباب ، وأن أمله ليتركز فى نموها وكثرة أعدادها ، إنها مظهر العز والجاه ، وإنها أساس البيع والشراء ، ومنها وحدها تدفع مهور الزوجات ؛ ولقد يظن البعض أن الدنكاوى يشترى امرأته بالبقر ، وهو ظن غير صحيح فان الأمر أخطر واعظم عمقا . ليست البقرة التى تقدم

فى تلك البيئة التى لم تصل إليها إلا الخيوط الأولى لأشعة الحضارة إلا كخاتم الخطوبة عند الشعوب التى بلغت الحظ الأعلى من الحضارة ، وليست قيمة خاتم الخطوبة فى ذهبه وإنما هى فى المعنى السامى الذى يحمله .

وتنقسم الحياة عند الدنكا إلى فصلين : فهم بدو رحل فى فصل الجفاف حيث يتنقلون بمواشيهم فى السهول الواسعة التى تكون قد كستها الحشائش الطويلة النضرة ويطلقون على هذه المناطق السهلية اسم «التوك» ومع أهميتها لديهم فهم لا يبنون فيها مساكنهم ، أما نصف السنة الآخر فهم فيه مستقرون ، وهم فيه زراع يفلحون التربة ويزرعون الحبوب فيما ارتفع من أراضيهم ، ولكن الزراعة لها المكان الثانى بعد الماشية التى تتركز حولها حياة الدنكا والتى تمثل كل ما يملكون .

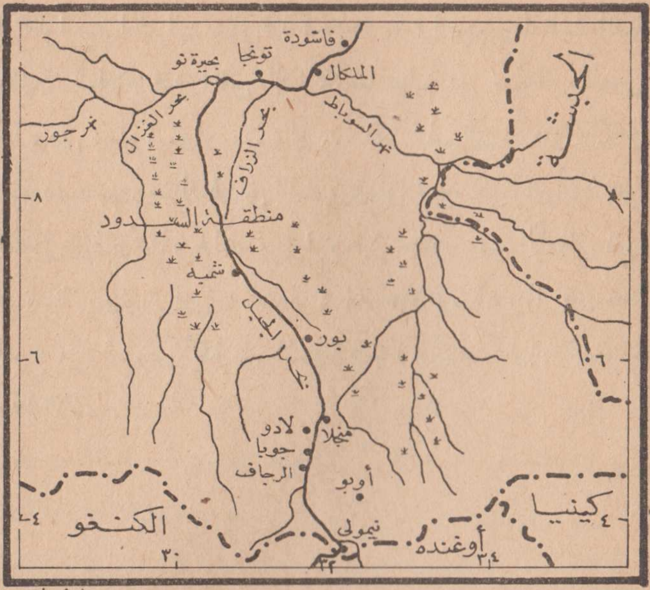
وعشائر الدنكا وبطونها كثيرة يحمل كل منها اسما هو فى الغالب اسم حيوان او مظهر من مظاهر الطبيعة ، وليس هذا بغريب ففى الجمهورية العربية المتحدة وغيرها من دول العالم عائلات اخذت أسماءها من المملكة الحيوانية أو من ظاهرات الطبيعة . ومن بطون الدنكا دنكا اتويت نسبة إلى الأوزة ذات الأجنحة الملونة، ودنكا الأقار نسبة إلى الثور الفحل ذى القرون

الطويلة المنفرجة ، ودنكا بور نسبة إلى الفيضان الذى يغمر أراضيهم فى موسم الأمطار . ودنكا العلياب نسبة إلي حشرة صغيرة ذات لون أسود تعيش هناك . ودنكا السيك التى تنفرد بصناعة الأسلحة والأدوات الحديدية ولذا تعرف بدنكا الحدادين .

والدنكاوى صريح صادق ، لا يعرف الغش ولا الخداع ، وقد يختصم إلى الزعيم فى أمر فإذا لم يقتنع بالحكم أعلن ذلك وصرح بأنه سيقتص لنفسه من خصمه ، وهو من أكثر قبائل الجنوب تمسكا بعقائده ، يؤمن بـ « النيالك كوكوار » وهى فى لغتهم تعنى : « الله والجدود » ، وهى القوة الخالقة المبدعة التي وسعت كل شيء والتى لا يحيط بها شىء ، فيها النفع ومنها الضرر ، وإليها الأمر من قبل ومن بعد ، وفضلا عن هذا فله روح مقدسة هى روح « دعج ديت » وهى التى توصله إلى الإله الأكبر وهى التى توجهه فى كل أمور الحياة .

وكبرى مدن بحر الغزال هى « واو » وهى بلدة صغيرة اختلفت الآراء حول إطلاق هذا الاسم عليها ، فقال البعض إنه اسم محرف من كلمة « جاو » ومعناها السوق فى لغة جماعات اليانجو الساكنين فى الإقليم ، ويرجع البعض الآخر بالاسم إلى

زمن المهدية ويقولون إن الأنصار انشاوا « زريبة » فى المكان الذى عليه واو الآن ثم هجم عليهم الدنكا فى ليلة من الليالى فاعملوا فيهم الحراب حتى قتلوا عدداً كبيراً منهم ولما كانت الليلة حالكة الظلام فقد اتفق الدنكا فيما بينهم على صيحة يتنادون بها وهى :واو؟..واو ... واو ... فلما تم لهم النصر حمل المكان اسم صيحتهم،وهناك فريق ثالث يرى أن شجرة البنيان أو الجميز البنغالى إذا نمت وتدلت من فروعها جذور إلى الأرض فإن الدنكا يقولون إن الشجرة قد « واوت » ولما كان هذا النوع من الشجر يكثر فى المنطقة فقد اكتسبت البلدة الصغيرة هذا الاسم .



(شكل ٢)

مظاهر كهولة كاذبة

(حوض بحر الجبل وبحر الغزال)



بعد بحيرة « نو » يغير النيل اتجاهه فيولى وجهه شطر المشرق حيث يتخذ له من غير أهله وزيراً ، يشد به أزره ، ويشركه فى أمره ، فيلتقى بالسوباط النهر الحبشى الذى تنفخ من روحه في النيل الأكبر فبعث فيه الحياة بعد أن كاد شعاعها ينطفىء فى أرض السدود ، ولولا السوباط وما حمل من ماء وطين ، لما استرد النهر أنفاسه المبهورة وواصل رحلته إلي الشمال .

والسوباط أول رافد يحمل إلي النيل غرين الحبشة وهو غرين ذو فضل كبير ، فهو الذى جعل النيل الأبيض يكون ضفافا تمسك عليه الماء فلا ينتهى إلى ضياع كضياع مياه بحر الغزال ، ولولا ذلك الغرين لامتدت مناقع بحر الجبل وسدوده إلى حيث لا يعلم إلا الله ، ويجمع السوباط بعض مائه من هضبة البحيرات التى هى المنابع الاستوائية للنيل ، ولكن سائر الماء يأتي من الأطراف الجنوبية لهضبة الحبشة حيث ترتفع تلك

الأرض البركانية وتتسامى ، فالنهر يتكون من اتصال رافدين رئيسيين هما بيبور وبارو ، ويستمد بارو كل مياهه من هضبة الحبشة ، أما بيبور فإنه وإن يكن يستمد معظم مياهه من الهضبة ذاتها إلا أن له موارد فى الهضبة الاستوائية وفى المرتفعات الواقعة إلى الشمال من بحيرة رودلف ، ولكن البيبور رغم تعدد روافده يظل نهرا قليل الأهمية فى مائية السوباط ، إذ أن روافده قليلة المياه ثم إنها تجري مسافات طويلة فى ارض قليلة الانحدار مما يؤدى إلى تكوين المناقع والسدود وفقدان الماء الكثير نتيجة لذلك .

ولو أن السوباط يعتمد على البيبور وحده لما كان له شأن يذكر فى مائية النهر الكبير، وإنما هى مياه نهر بارو الذى جعلت للسوباط مكانة إذ أنها حصيلة عدة مجار مائية تجمع مياه إقليم جورى فى الجانب الغربي من هضبة الحبشة ، وهو إقليم تغزر فيه الأمطار ويمتد موسمها لبضعة شهور . ولا يسلك بارو طريقا سهلا مباشراً بل ينهج نهج أقرانه من أنهار الحبشة فيجول بين المرتفعات والنجاد معتمداً على شباب فياض وحيوية دافقة فيجمع فى رحلته الطويلة كل ما يستطيع حمله من مياه .

ويتحول النهر الكبير إلى الشمال بعد ملتقاه بالسوباط حاملا

اسما جديدا هو « النيل الأبيض » إذ تشوب مياهه كدرة تنتمي فى أصلها إلى مياه السوباط ، ويسير فى اتزان وتؤدة فقد انقضى الشباب ، وختم ايامه بمحنة كادت أن تقضى عليه لولا فضلة من عمر ، ويقل عمقه حتى لتكاد المراكب أن تصطدم بالقاع فى بعض الأحيان ، ويقل انحداره فيبدو وكانه بحيرة طويلة آسنة المياه،وهنا قد يخطر بالبال سؤال لماذا لم تتكون السدود فى النيل الأبيض وله هذه الظروف التى كانت سببا فى تكونها فى بحر الجبل؟ إن الفضل ليرجع إلى رواسب السوباط فهو برغم ما يفقد منها فى طريقه إلى النيل الأبيض يظل محتفظاً بكميات تكفي لتكوين ضفاف مرتفعة على جوانب النيل الأبيض تحول دون أن تتسرب المياه على الجانبين فتنتشر عليها وتكون المناقع التى هى بيئة خصبة لنمو النباتات المائية ، هذا فضلا عن أن الأراضى التى يجرى فيها النيل الأبيض ليست منخفضات واسعة كاراضى بحر الجبل .

ويحف بالنهر عدد من الأخوار تجرى بالماء تحمله إلى النهر الكبير او تلتقى به فى النهاية بلا هدف ، ويعترض النهر عدد من الجزر الكبيرة تشطر مجراه شطرين يظل الغربى منهما دائما أهم من الشرقى الضحل الذى قد يجف فى بعض الأحيان ، ومن

هذه الجزر جزيرة أبا التى تقع إلى الشمال من كوستى وقد كانت المهد الأول للدعوة المهدية .

وعلى جانبى النهر تمتد السهب منبسطة ويرقشها هنا وهناك أشجار من السنط منها الأخضر والرملى والميال إلى البياض ، وقد يبدو العشب مسودا وبه آثار حريق فمن عادة القوم أن يضرموا فيه النار حينما يجف لتتكشف الأرض وتسهل عليها الحركة والانتقال ، ولكنها حرائق تتلف التربة وفيها خطر على الأشجار .

ويسكن هذه السهب شعب من أمجد شعوب جنوب السودان هو شعب الشلك . وللشلك أن يفخروا بما سجلوه فى تاريخ السودان الحديث فمنهم كان الثائر الأول على الاستعمار فى السودان وأحد دعاة الوحدة المخلصين ، وهل كان الشهيد على عبد اللطيف إلا ضابطاً شلكاويا عاش فى الخرطوم وآمن بالعزة القومية فذهب شهيد إيمانه بعد أن سجل اسمه فى التاريخ بحروف من نور ، وكم للإيمان الحق من شهداء .

ويختلف الشلك عن النوير فى أنهم يدينون بالولاء لزعيم واحد هو « الملك » أو « الرت » كما يسمونه فى لغتهم وله عليهم سلطة ، وله فيهم نفوذ ، ولكنه يسوس أمورهم فى ديمقراطية

عادلة ، فله مجلس أعلى يتألف من وجوه القوم وأكابر القبيلة يحضون الملك النصح فيأخذ بمشورتهم فى كل ما يعن له من الأمور ودون هذا المجلس مجلس آخر هو « الجال دونج » أو مجلس الشيوخ الذي ينظر فى المخاصمات والمسائل التى تتصل بحياة الأفراد ومن اختصاصاته جمع الضرائب والسهر على شئون الأمن وتنظيم العلاقات بين القبيلة وغيرها من القبائل ، ومن دون المجلسين مجلس الأجاويد ينظر فى القضايا البسيطة المتعددة الأنواع .

وفى وسط السهوب تقوم مدينة الملكال على الضفة اليمنى للنهر وهى مدينة مصرية تحمل اسما شلكاويا معناه مرعى الماشية المرتفع ، وإنها لبلدة صغيرة خفيفة الروح ، اختارها الرى المصرى لتكون مركزا لمشروعاته ودراساته فى أعالى النيل : فخلق في تلك الجهة النائية من الوادى بقعة متحضرة راقية ، شوارع مرصوفة وحدائق غناء ، وأبنية بسيطة ولكنها لا تخلو من جمال .

وغير بعيد منها تقع كودك وكانت عاصمة مديرية أعالى النيل ، فلما رأت السلطات ما آل إليه أمر الملكال نقلت إليها مركز الإدارة والحكم ، واتخذت منها قاعدة لحكم تلك الجهات الواسعة من أعالى النيل خصوصاً وأنها تتوسط اهم قبائل الجنوب ، فعلى

الضفة الغربية للنهر ينتشر الشلك ، ويسكن النوير فى الجنوب الشرقى من الملكال وتنزل بعض شعوب الدنكا إلى الشرق من النيل الأبيض ، وهكذا يتوحد فى الملكال الشمال والجنوب وتتلاقى مختلف الاشكال وتتجمع اصناف شتى من العادات .

ويثير اسم كودك في النفس ذكريات وذكريات ، فليست كودك سوى فاشودة القديمة التى لها فى تاريخ مصر والسودان صحائف مسطورة ، ففى اواخر القرن الماضى كانت فرنسا تسعى جاهدة لإنشاء امبراطورية استعمارية فى قلب إفريقية ، فترسل كاتب محام فشل فى مهنته فانتسب إلي الفرقة الأجنبية ولم يلبث أن أصبح ضابطاً يستهويه سحر النيل فيغامر للوصول إليه آتيا من الغرب ... ويتقدم « مرشان » ومعه شرذمة من شباب السنغال جندهم الاستعمار لخدمة اهداف لا يعرفون من أمرها أى شئ ، ويفقد معظم هؤلاء الشباب فى الطريق فريسة للأمراض أو غذاء شهيا للضوارى ، ولكن مرشان لا يقنط ولا ييأس بل يسير ويسير حتى يصل فى نهاية الأمر إلى النيل فى يوليه من سنة ١٨٩٨ بعد ثلاث سنوات من سفر مرهق طويل وفوق فاشودة يرفع الراية المثلثة الألوان دون أن يلقى مقاومة أو اعتراضا ويعقد مع ملك الشلك معاهدة يضمن بها الصداقة وحسن الجوار .

وتصل الأخبار إلى الخرطوم فيسرع كتشنر سردار الجيش المصرى ومعه كتائب سودانية إلى حيث يلتقى بمرشان ، ويتقابل الرجلان ويتحدثان فى امر فاشودة ويصر كتشنر الانجليزى على أن هذه الأرض مصرية ويرفع علم مصر الأحمر ذا الهلال والنجمة ويرفض مرشان إنزال علمه إلا إذا اتصل بحكومته، وتنتقل المعركة من قلب إفريقة إلى غرب أوربا ، وترضخ باريس فى نهاية الأمر وتنزل علمها ولكنها تغمر رجالها با كاليل الغار ويموت مرشان فى نهاية سنة ١٩٣١ بعد أن يرى خلفاء كتشنر وقد تنكروا للحق والعدل وراحوا ينهجون سياسة هدفها استصفاء السودان مستعمرة لهم ، فلاهم احتفظوا بحق مصر كما قالوا ، ولاهم تركوه لابنائه ينعمون فيه بالحرية والاستقلال .

إنها صفحة من تاريخ الاستعمار وما أحرانا فى مصر والسودان بعد أن تحررت إرادتنا أن نقلب صفحات التاريخ

وتنتهي أراضى النيل الأبيض فى الغرب إلى مرتفعات النوبا التى هى فى الوقت نفسه الحد الشمالى لأراضى بحر الغزال ، وهى جبال تتوسط سهلا طينياً واسعاً تتكون في معظمها من حجر الجرانيت ويتراوح ارتفاعها بين ٥٥٠ ، ٦٥٠ متراً فى المتوسط ولكن بعض أجزائها قد يرتفع فيتجاوز الألف من الأمتار ،

وقد تبدو المرتفعات فى بعض الجهات وكأنها جبال عالية منفردة كجبل تالودى وهيبان وأم غزية ، وربما عريت صخور هذه المرتفعات من الغطاء النباتى ولكن معظم جهاتها فى العادة به نوع من الحياة النباتية التى تستمر طول العام . وفيما حول الجبال توجد مساحات واسعة ملئت برواسب ناشئة من تفتت الصخور نتيجة تعرية هوائية أو مائية ، ويتراوح قوام هذه التربة بين الرمل الخشن نوعا والصلصال الناعم و يطلق الأهال على التربة الرملية الخشنة اسم « جردود » بينما يطلقون على التربة الصلصالية اسم « الطين » .

وقد نجحت جماعات النوبا فى تحويل مرتفعات بلادهم إلى مدرجات تستخدم فى الزراعة التى تدل الظواهر علي أنها كانت قديماً اوسع مما هى عليه الآن ، ولعل مرجع هذا هو استتباب الأمن الذى شجع العناصر الجبليــة على الهبوط إلى السهول واستخدام أراضيها فى الزراعة ، ومن قبل كانت تخاف هذا الهبوط وتخشاه . والتربة الطينية هى أغنى أنواع التربة ولكن استخدامها للزراعة يرتبط بمبلغ بعدها عن القرية وتحدده الحاجة إلى موارد المـاء فى فصل الجفاف ، ثم إن الكثير منها يصبح غدقا فى فصل المطر نظراً لضيق مسافاتها البينية مما يحول

دون غيضان الماء ، وأهم مظاهر الحياة النباتية فى تربة الجردود شجر الطلح ومنه يؤخذ الصمغ العربى الغلة الثانية فى قائمة صادرات السودان ، وأصلح أراضى الجردود الزراعية هي التي ينمو فيها الطلح ومعه الهجليج ، ومن أشجار المنطقة « السحابة » ويستخدم النوباويون أخشابها فى بناء مساكنهم والتراك تراك وتعطى نوعا من اللبان .





الشوك

(شكل ٣)

لقاء الأخوين

(النيلان : الأبيض والأزرق)

لقاء الأخوين

وعند الخرطوم يأذن الله لشقيقين شتيتين باللقاء ، خرج « الأبيض » من بحيرة نوهادنا وقورا يتهادى فى سهول السودان ، وخرج « الأزرق » من بحيرة « طانا » وراح يضرب فى نجاد الحبشة أرعن لا يستقر ، وغير بعيد من دائرة العرض الخامسة عشر يلتقى النهران ، هذا فتى أغبر ماؤه وهذا شيخ كبير ، فيتعانق النهران فى قبلة طويلة تخلد آثارها فى جزيرة جميلة هى « توتى » الساحرة التى تقوم فى المقرن تشرف عليها عاصمة الجمهورية السودانية بأجزائها الثلاثة الخرطوم وأم درمان والخرطوم بحرى .

وقبل أن يصل النيل الأزرق إلى الخرطوم يكون قد غير اتجاهه حتى يصبح فى النهاية متجها من الشرق إلى الغرب ويلتقى مع شقيقه الأبيض مكونا زاوية قائمة أو شبه قائمة ، ولما كان الأول سريع الجريان محملا بالرواسب وكان الآخر بطىء السير لا يحمل من الطمى إلا النزر اليسير ، فإن اقترانهما يؤدى إلى أن يتخفف النيل الأزرق من عبئه فيلقى بالكثير من رواسبه مكونا جزرا فى وسط النهر أو أرصفة رسوبية

ملاصقة للساحل ، والحق أنه لولا وصول المياه الحبشية لما استطاع النيل الأبيض أن يواصل رحلته إلى مصر فليس النهر الخالد فيما تحت الخرطوم سوى امتداد للنهر الحبشى الكريم .

وتلد النيل الأزرق أم ضعيفة أنجبتها حركات بركانية ثم تركتها وحيدة فى الجانب الغربى من هضبة الحبشة على ارتفاع ١٨٤٠ مترا من سطح البحر ، تلك هى بحيرة « طانا » التي تبلغ مساحتها ثلاثة آلاف كيلو متر مربع أو تزيد قليلا ، ويخرج من جنوبها النيل الأزرق نهرا ضيقا منخفض الجوانب منعدم الرواسب تقريبا ، وتعترض مخرجه من البحيرة جزيرتان هما دبرا مريم وشيابو وبذلك ينقسم النهر بين مجارى ثلاثة ويسير بعد خروجه من البحيرة فى منطقة تكثر بها المناقع وبخاصة فى الغرب ، ويتراوح عرضه بين ٢٠٠ ، ٣٠٠ متر حتى إذا ما وصل إلى تلال بوريفازاس ضاق مجراه وقوى تياره واندفعت مياهه ، ولكنه لا يلبث أن يرتد إلى سيرته الأولى بعد أن يترك التلال ، ثم لا يلبث أن تعترضه شلالات أرفامي ومن بعدها يميل إلى جانب الحكمة والتعقل فيرسم دائرة كبيرة ليتجنب ما يعترض طريقه من المرتفعات حتى إذا ما بلغ غايته اتجه إلي الغرب ثم إلى طريق ما بين الغرب والشمال .

ولا يتنكر النيل الأزرق لطبيعته الجبلية فيظل فى معظم مجراه نهرا دفاقا شديد الانحدار وبخاصة فيما بين مخرجه من بحيرة طانا والروصيرص حيث ينحدر من ارتفاع يبلغ ١٨٤٠ مترا إلى ٤٦٦ مترا فى مسافة تقل عن الألف كيلو متر ولكنه بعد الروصيرص يصبح نهرا ضعيفا إذ لا يزيد انحداره عن ٢٦ متر فى مسافة ٦٤٠ كيلو مترا ومن ثم يصبح صالحا للملاحة من الروصيرص إلى الخرطوم .

ويبلغ طول المسافة بين بحيرة طانا والروصيرص مع النهر الف كيلو متر مع انها على الخط المستقيم لا تزيد على ٣٠٠ كيلو متر ويرجع هذا إلى الطريق الطويل الذى اختاره النيل الأزرق لنفسه متسكعا بين مرتفعات الحبشة ونجادها ، وخيرا فعل ، فانه بتطوافه فى طريقه الملتوى يجمع اكبر كمية من مياه الحبشة وطميها مما أكسبه تلك المكانة الملحوظة بين زملائه من أنهار الحبشة جميعها ، وهكذا عالج بنشاط الشباب ما ورثه من ضعف الميلاد . ولا يفوت النهر المتجدد الشباب وهو فى رحلته الطويلة للقاء أخيه أن يستعين بروافد عديدة تؤازره عن يمين وشمال ، فعلى الضفة اليسرى أنهار جما وموجر وجودر التي تاتي من مرتفعات شوا ونهر ديدسا ومنابعه قريبة من منابع السوباط

وعلى الضفة اليمنى الدندر أكثر الروافد جميعها كمية ماء والرهد الذى يلتقى به عند واد مدنى مركز الثقل الاقتصادى فى السودان .

وعلى ضفاف النيل الأزرق تكتب صفحة جديدة فى تاريخ السودان ، ففى « سوبا » التى تقع على بعد عشرين كيلو متراً من الخرطوم على العدوة اليمنى للنيل الأزرق كانت عاصمة مملكة علوة المسيحية التى لم يبق منها الآن سوى أكوام رملية فوقها قطع من الآجر ومن شظايا الفخار ، وكان يمكن أن يبقى الشىء الكثير من آثار العاصمة لو ان الذين بنوا منازلهم فى الخرطوم منذ انشائها لم تمتد أياديهم إلى تلك الخرائب يحملون من أحجارها ما يشيدون به دورهم ، وفى « بيت الخليفة » بأم درمان الكثير من هذه الأحجار .

وتبدأ موجات العرب تصل إلى السودان وتتحالف قبيلة عربية على رأسها عبد الله جماع مع شعب يقطن أرض الجزيرة حول سنارهم الفونج ويهاجم الحليفان «سوبا» ويكون لهما النصر وتذهب دولة علوة المسيحية بعد أن حكمت عدة قرون .

ويتخذ « عمارة دنقس » مؤسس دولة الفونج فى أواخر القرن الخامس عشر من مدينة سنار عاصمة لدولته الناشئة ،

يمد منها هو وخلفاؤه سلطانهم ليكونوا ما عرف « بالسلطنة الزرقاء » فلا يطلع عليها فجر القرن السادس عشر إلا وقد اتسعت رقعتها لتضم كردفان فى الغرب ولتصل حتى دنقلة فى الشمال ، وطبيعي أن تنمو العاصمة وتزدهر مع اتساع الملك وأبهته فتصبح سنار فى مغرب القرن مدينة يبلغ عدد سكانها المائة ألف او يزيدون ، وتنظم تجارتها وتنتشر حتى يصبح قطنها ملبسا لسكان السودان الشرقى والغربى على السواء .

ولا ينسى الفونج لحليفهم « عبد الله جماع » وعشيرته من العبدلاب صدق معونتهم فينيبونهم فى حكم الشمال ويتخذ العبدلاب من « قرى » بين شندى والخرطوم عاصمة لهم ثم ينقلونها إلي حلفاية الملوك على مقربة من الخرطوم بحرى ويحكم العبدلاب نحو ثلاثة قرون ، ويكون منهم أمراء لهم فى التاريخ نصيب ، ومن أشهرهم الشيخ عجيب المانجلك الذى فعل الكثير فى سبيل نشر الدين والثقافة الإسلامية فى ربوع السودان .

وتمتد مصر نحو الجنوب ، وتغرى المنطقة التى يلتقى فيها النهران بانشاء مدينة تاخذ اسمها من لسان الأرض المحصور بين النيلين والشبيه بخرطوم الفيل ، وتكون عاصمة للسودان

جميعه ، وتنمو المدينة مع الأيام فتصبح من المدن الأفريقية ذات الشان ، ويزداد شأنها كسوق للتجارة وكمركز تبدأ منه الرحلات للكشف عن مجاهل القارة العذراء ، ويضطرد نمو المدينة حتى تقوم الثورة المهدية وتعم معظم السودان ، ويأتى دور الخرطوم فيحاصرها الدراويش لمدة ٣٢٠ يوما وغوردون فيها ، وكانت السياسة الانجليزية قد بعثت به ليخليها ويخلى السودان ، ولكن أبى له هذا وقد أطبق الدراويش على العاصمة من كل جانب ، وساءت حالة الناس بها إلى حد لا يطاق ، ويدفع غوردون رأسه ثمناً لسياسة خرقاء . وتسترد الخرطوم بعد سنوات قاعا صفصفا ، ثم يعاد تخطيطها فى مطلع القرن العشرين مدينة حديثة تصبح فيما بعد عاصمة يزهو بها السودان .

* * *

وتنهار الحياة الاقتصادية فى السودان نتيجة لما شهد من حروب ، إلا أن هذا الانهيار رغم أضراره كان له جانبه الطيب ،فقد اعطى الإدارة الجديدة الفرصة لإعادة البناء فى سهولة ويسر وعلى أسس اقتصادية سليمة ، وتتطلع الأنظار أول ما تتطلع إلي « أرض الجزيرة » وهو اسم يطلق على السهول

الواسعة المنبسطة التى يحتضنها النيل الأزرق فى الشرق واخوه الأبيض فى الغرب ، ويفكر فى استغلال أراضيها الفساح فى الإنتاج الزراعي ، ويظهر مبلغ الاهتمام بهذه الناحية فى التقريرات السنوية عن الحالة المالية والإدارية فى السودان منذ بداية القرن الحالى .

ويرتبط التطور الزراعى الحديث باسم شركة استعمارية نهبت من أموال الشعب السودانى فى عمرها القصير الشىء الكثير ، تلك هى نقابة الزراعات السودانية التى يرجع تأليفها إلى سنة ١٩٠٤ حينما زار السودان المستر لى هنت وعاد مقتنعاً بصلاحية أرض السودان لزراعة القطن ، ونجح هذا الأمريكى الطموح فى أن يحصل بواسطة اللورد كرومر شيخ الاستعمار فى حوض النيل على عشرة آلاف فدان من أراضى الحكومة لتجربة تلك الزراعة ، كما نجح فى اجتذاب رؤوس الأموال البريطانية للاشتراك في المشروع وتاليف شركة نقابة الزراعات السودانية .

كانت الأراضى الممنوحة للشركة فى منطقة الزيداب ، وقد زودت بطلمبات لرفع المياه من النيل ووزعت الأراضى بعد تقسيمها على سكان المنطقة والمناطق المجاورة يزرعونها

كمستاجرين ، وقد لعبت المنطقة رغم صغر مساحتها دوراً هاما فى تاريخ السودان الاقتصادى الحديث فقد كانت المدرسة الأولى لتعلم زراعة القطن وقد برهنت التجربة على أن الفلاح السودانى يمكن تحويله إلى زارع إذا توفرت له ظروف الزراعة الملائمة.

ويساعد نجاح مشروع الزيداب على الاتجاه نحو الجنوب، إلى أرض الجزيرة. وتفشل التجارب الأولى أو تكاد ولكن الأمل يدفع إلى الاستمرار فى المحاولات دون توقف ، ويرى أن إنشاء خط لسكة الحديد يربط هذا الجزء المرموق بساحل البحر الأحمر ربما غير الموقف تماماً ، وتنجح التجارب بعد إخفاق فى الطيبة وبركات وكان لهما من إسميهما أوفر نصيب، ويسود الاعتقاد قبيل الحرب العظمى الأولى بأن القطن هو أصلح الغلات التى يمكن زراعتها للنهوض بالمستوى المالى والتجارى للسودان . وكان لهذه التجارب أهميتها فقد أثبتت ان القطن الذي يزرع فى أواخر الخريف وأوائل الشتاء يعطى محصولا جد وفير ، ومن ثم فلن يكون هناك تعارض بين القطن كمحصول صيفى فى مصر والقطن كمحصول شتوى فى السودان ، وتساعد هذه الحقيقة الهامة إلى حد كبير على حل مشكلة توزيع

مياه النيل ، وإنها لمشكلة لا وجود لها إلا في اذهان الذين ابتدعوها لحاجة فى نفس يعقوب .

ويفكر فى النيل الأزرق بقصد السيطرة على مائه ، فيبنى عليه فى ختام الربع الأول من هذا القرن سد عند سنار يبلغ ارتفاعه ثلاثين متراً ويصل عرضه إلي ثلاثة كيلو مترات . ويعرف النهر النزق لأول مرة في حياته منذ جرى متسكعاً فى هضاب الحبشة ان هناك شيئا اسمه النظام ، وأن جزءاً من مائه الكدر الوفير الذى يقذف به إلى البحر فى إسراف عنيف يمكن أن يختزن ويتحكم فيه لرى مئات الآلاف من الأفدنة ، تنتج الذهب الأبيض فى المكان الأول ثم تنتج غذاء للإنسان وعلفاً للحيوان بعد ذلك ، هكذا أراد الذين أنشأوا السد وكانت لهم من وراء ذلك أهداف .

وتحول هذه المياه المختزنة إلى الحقول تحملها قنوات رتبت فى نظام هندسى بديع ، تغذيها قناة رئيسية تمتد لأكثر من مائة كيلومتر وتسير موازية للنهر متجنبة منحنياته ومنعرجاته ، وتستشف مستقبل السودان وأن تتجول فى الإقليم بعد ان جلا الغاصب عن أراضيه وآلت الأرض إلى أصحاب البلاد الشرعيين .

وكان أساس مشروع الجزيرة هو ٣٠٠ ألف فدان يحتل القطن ثلثها بالتبادل مرة كل عام ، وتحدث فى مصر قبل افتتاح الخزان حادثة يستغلها الاستعمار لتحقيق أهدافه المرسومة ، ففي الثامن عشر من شهر نوفمبر ١٩٢٤ تطلق على سردار الجيش المصرى الانجليزى رصاصات تودى بحياته فتسارع دار المندوب السامى بإنذار إلى حكومة القاهرة تجمع فى بنوده مالا يخطر للعدالة فى بال ويحيط البند السادس من الإنذار « الحكومة المصرية علما بأن حكومة السودان سوف تطلق يدها فى أراضى الجزيرة غير مقيدة بمساحة محدودة » إنه إذا تهديد مستتر بتجويع مصر بحرمانها من الماء ، وتحتج الحكومة المصرية علي إقحام هذا البند فى الإنذار فلا تلق حكومة لندن بالا إلى هذا الاحتجاج ، ومتى أصغى القوى المتعجرف لاحتجاج الضعيف وشكواه ؟ ! ولا شك أن نية الحكومة البريطانية كانت مبيتة فى الأصل للتوسع فى أراضى الجزيرة لا خدمة للسودان ولكن خدمة لمصالح الاستعمار ، وقد كانت حادثة قتل السردار فرصة سانحة استغلها الاستعمار لتحقيق خطة مرسومة من قبل ، وإلا فكيف نفسر أن الخزان استطاع فيما بعد ان يوفر المياه

اللازمة لرى مليون فدان إذا كان قد صمم فعلا لرى ٣٠٠ ألف فدان فقط .

لقد قيل كلام كثير حول الخطأ فى الحسابات الخاصة بتصميم الخزان ولكن ليس من السائغ أن نقبل خطا محتملا يربو على ٣٠٠٪ فى مشروع يتكلف نحو ١٣ مليون جنيه .

وتتطور أرض الجزيرة فى سرعة فلا يمضى على إقامة السد ربع قرن حتى ترتد البداوة حسيرة آسفة ليحل محلها الاستقرار والارتباط بالأرض ، وحب الماء والطين ، وهى سمات من خلق الزراعة ، ومن كان يظن أن البدوى راعى الإبل والضان سيعرف كيف يتعهد القطن بذرة مرهفة ثم يعنى به عودا لينا رطبا ، ثم يجمعها فى أوائل الربيع ذهبا أبيض فيه الخير ومنه البركة ؟ ! ويصبح السودان بعد سنوات وله المكان الثاني بين الدول الإفريقية المنتجة للقطن .

وتشتد الحاجة إلى الأيدى العاملة وبخاصة فى موسم جنى القطن بعد أن اتسعت المساحة وزاد المحصول . فتفتح أبواب السودان دون أن يكون عليها رقيب لعناصر من الفلاتة آتية من الغرب ، كانت وجهتها أصلا عبور البحر الأحمر إلى بيت الله الحرام ؛ ولكن ما عليها لو تمهلت قليلا فى أرض السودان

تجمع القطن وتجمع المال ، وكثيرا ما يلهيها الأخير عن رحلتها والغرض منها فتستوطن وتقيم ، وكان القائمون بالأمر يشجعون هذه العناصر ويساعدونها على التوطن وكان هدفهم من هـــذا ان يخلقوا من أرض الجزيرة « فلسطين جديدة » ؛ كان هدف الاستعمار ان تكون هناك أقلية مترابطة يستطيع أن يتمحك فيها ويدعي حماية مصالحها ، واستطاع فى الوقت نفسه أن يوغر صدر الوطنيين على هـــذه العناصر الافريقية ؛ وكانت الفتنة قد بدأت تطل برأسها فعلا لولا أن اراد الله للسودان أن يستقل وللاستعمار أن يافل نجمه فى حوض النيل ، وإذا بالشرارة التى أشعلها تنطفىء قبل أن تلهب الحريق ؛ وإذا بالسودان المستقل ينظر إلى هذه العناصر نظرة أخوة وعطف وإذا بالجميع يعمل متساندا لإعلاء شان الوطن وتدعيم اقتصادياته دون ان يكون هناك غل او حقد .

وتنمو مع ازدهار الجزيرة عاصمتها « واد مدنى » التى تقع على الضفة الغربية للنيل غير بعيد عن مصب نهر الرهد وتصبح عروس نطاق القطن فى السودان ويزيد عدد سكانها حتى يقرب من الخمسين ألفا وبذلك يكون لها المكان الثانى من ناحيــة عدد السكان فلا يتفوق عليها سوى ام درمان .

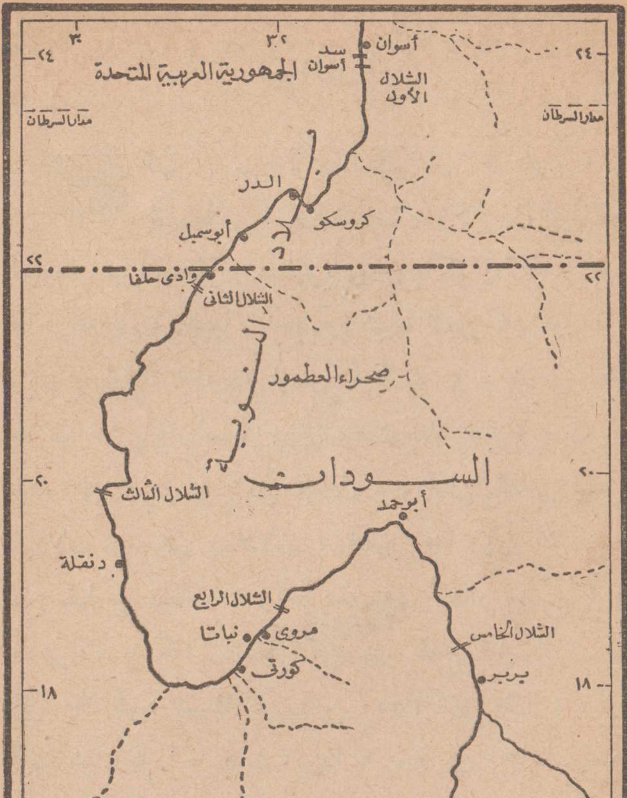
وكما كبح جماح النيل الأزرق سد عند سنار ، يحتجز فضلة من مائه يحول بها سهوب الجزيرة إلي جنة وارفة الظلال ، فقد مر النيل الأبيض بنفس التجربة ، ولم يكن جامحا فتفرض عليه تلك القيود ، ولكن أخاه يندفع بما يحمل من سيول الحبشة فيمنع النهر الشيخ من الجريان بمائه طول مدة الفيضان ويجعله أشبه ببحيرة طويلة راكدة المياه ، مثل هذه البحيرة الطبيعية أوحت إلى المهندسين بان يخلقوا منها خزانا مصنوعا ، وأن يقيموا على النهر سدا يتحكمون به فى الماء المدخر ، يرسلونه إلى مصر فى فصل الربيع ، وكان من قبل يصلها طبيعيا فى فصل الشتاء ، ولكنها فى الربيع اكثر حاجة إلي الماء ، وأن يجعلوا منه فى الوقت نفسه أداة لوقاية مصر من بطش أخيه الحبشى حينما يسرف فى الفيضان .

ولكن فكرة إنشاء خزان على النيل الأبيض عند جبل الأولياء لاتقابل بالرضى فى مصر ، فالسودان يتحكم فيه المستعمر ، وقد يتخذ من الماء والتهديد بحبسه وسيلة للبطش والطغيان ، وهو قد فعل ذلك من قبل يوم ان قتل السردار ، وتساعد الظروف السائدة فى اسفل الوادى على أن يصرف النظر عن المشروع إلي حين وتتخذ الأحزاب المصرية

من المشروع موضوعا للجدل والخلاف وكأنما كان الخلاف لايزال فى حاجة إلى وقود ليذكى لهيبه ، وتمر سنوات قبل أن تفكر الحكومة المصرية بحساب الاقتصاد لا بمناورات السياسية ويبنى السد ويفتتح فى سنة ١٩٣٧ ويكون فيه لمصر وللسودان خير عظيم .

فى البيداء

أصبح النهران نهرا واحداً فى شمال الخرطوم ، وشد قويهما من عزم الضعيف ، وكما دخل النيل سهول السودان نهراً صخابا عنيفاً فهو يأبى أن يتركها إلا بعد أن يستعيد ظاهراته الأولى جميعا ، إنه يسترد شبابه الذى كان قد ضاع ، ويفرح بالحياة الجديدة فيسرع فى السير ، ويعترض الصخر طريقه فلا يأبه بالصخر وإن اشتدت صلابته ، ويتركه أشلاء صغيرة فى المجرى على شكل جنادل ، ويخطئ الناس فيسمونها شلالات وما هى بشلالات ، فالنهر هنا وإن اشتد جريه لا يسقط على دفعات ، وإنما يسير فى انحدار يتدرج ، وهى ظاهرات ما كانت تنتظر من نهر قطع قبل أن يصل إلى الخرطوم مسافة تقرب من ٣٥٠٠ كيلو مترا ، ويزدهى النهر شبابه فإذا به يعبث ، وإذا به يسير فى اتجاهات متضادة مكونا ثنية النوبة بين خطى عرض ١٦ درجة و ٢٢ درجة شمالا ، فبعد أن كان يسير إلى الشمال إذا به يتجه نحو الجنوب الشرقى فيما بين سبلوقة وعطبرة ثم يجرى إلى الجنوب الغربى فيما بين أبو حمد وأمبيكول ، ثم يعود فيتجه مرة أخرى



(شكل ٤) **فى البيداء** (النيل النوبى)

إلى الشمال الشرقى فيما وراء خط عرض ٢١ درجة شمالا ، ثم لايعود إلي طريق الصواب إلا بعد أن يغادر كروسكو .

والنهر هنا يجرى في صحراء هى أشد جهات أفريقية حرارة وجفافا ، وهى قادرة على أن تسلبه الجزء الأكبر من مائه بالتبخير لتبل به ظمأها الذى لا يروي ، وكأنما أدرك النهر ما يحتمل بخاطر الصحراء فجرى هاربا منها ، وأسرع فى جريانه حتى أصبح انحداره فى هذا الجزء من واديه أشد منه فى جنوبى الخرطوم أو شمالي حلفا ، وحسنا فعل فلا تزال امامه ارض تترقب وصوله فى لهفة بالغة وفى صبر نافذ .

وتعترضه أولي العقبات عند سبلوقة على بعد ٦٠ كيلو مترا من الخرطوم فيتخطاها فى خانق ضيق ترتفع جوانبه ، وينقط مجراه بعدد من الجزر الصخرية تحتل مكاناً كبيراً من المجرى ، وهذا هو الشلال السادس كما يكتب على الخرائط ، وعند بربر تبدا عقبة أخرى تستغرق من مجرى النهر مائة كيلو متر أو تزيد ، ويشتد انحدار النهر بين الجنادل والجزر الصخرية المتفرقة ، وتتكرر العقبات فيما بين ابو حمد[1] ومروى وعند أبو فاطمة وجنوب حلفا وغير بعيد عن أسوان ، ولكن النصر يحالف النيل فى كل معركة يخوضها مع الصخر ، وينجح فى النهاية

(١) عاملنا هذا الاسم وأمثاله معاملة اللفظ المفرد

فى الوصول إلى السهل الرسوبى الذى يمتد فيما وراء أسوان .

والنيل فى هذه المنطقة يعطي ولا يأخذ ، يفقد من مائه بالبخر والتسرب فى الرمال، ولا يرفده إلا نهر واحد هو العطبرة ، وهو آخر ماء يضاف إلى النيل قبل أن يبلغ نهاية المطاف ، وهو آخر رسول يحمل التحية والدعاء إلى الفارس الصنديد قبل أن يخوض المعركة .

والعطبرة نهر حبشى جواد ، فيه من أنهار الحبشة سخاؤها وفيه نزقها كذلك ، وتخلقه أمطار الهضبة الغزيرة كما تخلق إخوانه الأخر ، وهو يجمع هذه الأمطار من شرقى الهضبة ويجمعها من شمالها الغربى ، وتخرج الأولى فى نهر تكازى الرافد الأكبر للعطبرة، ويقلد تكازى أنهارا أخرى غير بعيدة، فلا ينحدر مباشرة إلى سهول السودان بل يجوب قلب هضبة الحبشة يجمع ماءها ويحمل طميها، أما مياه الشمال الغربى فيحملها جندوا وجوانج ويتحدان معاً بالقرب من القلابات ، وبعد التقائهما يحملان اسم عطبرة الذى يرفده بعد مسيرة مائة كيلو متر نهر آخر هو نهر السلام النابع من إقليم جندار فى الشمال الشرقى من بحيرة طانا ، وعلى بعد خمسمائة كيلو متر من النيل الكبير يلتقى عطبرة بتكازى أو ستت كما يعرف فى السودان ، وبعدها

يجرى فى السهول ، ولكن جأشه لا يهدأ كما يفعل النيل الأزرق حينما يلج باب سهول السودان عند الروصيرص ، ويندفع النهر فى طريقه لا يلتوى ولا يتعرج كما يفعل سيد أنهار الحبشة ، ويكون فى هذا الانحدار الشديد الخير كل الخير ، إذ يصبح العطبرة قادراً على أن يحمل إلى النيل من الطمي والرواسب أكثر مما يحمل غيره من الأنهار الحبشية بالنسبة إلى حجمه وطوله .

وككل أنهار الحبشة يفيض العطبرة فى يولية وأغسطس معتمدا على ما يسقط من أمطار الصيف ثم يهبط فيه منسوب الماء فى شهر أكتوبر ، ويصبح تكازى من نوفمبر إلى مايو واديا ضحلا ، ويتحول العطبرة العظيم إلى عدد من البحيرات المستطيلة تفصل بينها مناطق جافة تكاد تكون منبسطة ، وعلى هذه البحيرات يعتمد القوم فى شربهم وسقيا ما يرعون من أنعام .

ويحمل النيل فى هذه الديار الصحراوية اسم النيل النوبى ، فهو يجرى فى أرض النوبة التى تمتد فى مصر والسودان من الدكة إلى أسوان ؛ يجرى فى أرض « واوات » كما كان يسميها المصريون القدماء ، او بلاد أثيوبيا كما أطلق عليها الإغريق والرومان ، إنه يجرى فى بلاد النوبة ، أرض الذهب كما تعنى الكلمة فى لغة الفراعين ، وإلى أرض الكنوز حيث يعيش قوم

يحملون هذا الإسم . . ذهب وكنوز ومع ذلك فالأرض فقيرة وكذلك الناس ، السماء شحيحة لا تجود والأرض مجدبة لا تغل ، ولكن حسب القوم قناعتهم ، والقناعة كنز لا يفنى ، وكفاهم أمانتهم التى اشتهروا بها فاكسبتهم الثقة والإحترام ، إنهم أغنياء بجلدهم وكفاحهم فى سبيل العيش . يضربون فى الأرض سعياً وراءه لا يسالون الناس إلحافا بل يبحثون عن العمل ويقبلون عليه إقبالا .

وتحيا المنطقة فى عزلة تركت لها عاداتها وتقاليدهاالتى توارثها القوم عبر الأجيال فلم تتغير إلا بمقدار ، وقد عمرت السلالات النوبية أراضيها منذ عهد قديم ، وكانوا دائماً على صلة بمصر فى الشمال ، وكانت القوافل المصرية تسلك طريقها فى بلاد النوبة إلى الجنوب فى طلب الذهب والأبنوس والصمغ وجلود الحيوان ، وتحمل إليه الكثير من صناعات مصر المعروفة حينذاك . وفى عهد الدولة الوسطى استطاع ملوكها الأقوياء أن يتسعوا بمصر نحو الجنوب فكانت بلاد النوبة جزء من الإمبراطورية المصرية المترامية الأطراف ، يديرها حاكم يسمونه نائب الملك إظهارا لأهمية هذا الإقليم . وتضعف السلطة المركزية فى الشمال فتظهر أسرة نوبية تؤسس ملكا عريضا

حول « نباتا » ويستطيع احد ملوكها وهو « بعنخى » فى سنة ٧٥٠ قبل الميلاد أن يبسط نفوذه فى الشمال وأن ينشئ فى مصر أسرة حاكمة هى المعروفة فى التاريخ الفرعونى باسم الأسرة الخامسة والعشرين ، ويتوحد وادى النيل من البحر المتوسط إلى جنوبى الخرطوم لأول مرة فى التاريخ . وتنتشر حضارة الفراعنة متوغلة فى الجنوب ويسمى بعنخى نفسه « جالب السلام إلى البلدين ، ملك الشمال والجنوب ، ابن الشمس ، صاحب التيجان » .

وينقضى عهد الملوك العظام الذين كانوا ينتخبون كما يروى « استرابون » من بين أكثر الناس مهارة وأعظمهم بسالة ليخلفهم خلف ضعيف يتحكم فيه الكهان فتكون لهم الكلمة المسموعة والرأي المطاع . ويستولى الآشوريون على مصر سنة ٦٦١ قبل الميلاد فيرتد النوبيون إلى أوطانهم ليحكموها بعد ذلك الف سنة اوتزيد وتظل نباتا عاصمة حتى سنة ٣٠٠ ق . م حين ينتقل الحكم إلى مروى فيستمر فيها حتى سنة ٣٥٠ ميلادية وتنقطع الصلات السياسية بين النوبة ومصر ، فتضمحل الصبغة المصرية فى الفنون والحرف حتى تختفى ، وتنسى اللغة المصرية لتصبح للنوبة لغة خاصة تكتب بخط جديد هو الخط المروى .

ويوجه الرومان بعد أن سيطروا على الشمال حملاتهم

إلى بلاد النوبة فتخضع لهم ، وتصل إليها النصرانية لتحل الكنيسة محل المعبد الفرعونى القديم وليصلى للمسيح بدلا من آمون وبتاح .

ويصل الإسلام إلى مصر فلا يلبث أن يمتد إلى بلاد النوبة ويعقد أمير مصر عبد الله بن سعد بن أبى سرح معاهدته مع عظيم النوبة فى سنة ٦٥١ م . وتنزل العرب هذه الديار ولهم لسان جديد ودين جديد ، فيخالطون السكان ويصاهرونهم فيختلط الطريف بالتالد ، وتتوافد بطون من ربيعة ومضر وعشائر من جهينة ، فلا يمضى وقت طويل حتى يتحول الإقليم كله إلى الإسلام . ويحدث فى عهد الفاطميين أن يثور « أبو ركوة » على الحاكم بأمر الله فلا يظفر به إلا أمير النوبة « أبو المكارم هبة الله القرشى » فيكافئه الخليفة ويلقبه بكنز الدولة فينصرف الإسم إلى رعيته ويعرف سكان النوبة السفلى فيما بين كروسكو والشلال باسم الكنوز حتى يومنا هذا .

ويغزو السلطان العثمانى سليم مصر فيعين للنوبة حكاما هم الغز الكشاف ، تؤيدهم حاميات من الألبان والبشناق ، ويبنى هؤلاء قلاعا فى أسوان وأبريم وفى جزيرة ساى ، وتقوى شوكة بعض هؤلاء الحكام فيستطيع أحدهم وهو « حسن كوش » أن يرد

العرب نحو الجنوب حتى دنقلة . ويطمع الفنج بعد وفاته أن يبسطوا إلى الشمال نفوذهم ، وان يخضعوا النوبة الدنيا لحكمهم ، ولكن المزيمة لا تلبث أن تحيق بهم فى « حنك » على يد ابن جانبلان زعيم الغز الذين يستمر حكمهم حتي يتوحد وادى النيل مرة أخرى فى الربع الأول من القرن العشرين .

وإلى الجنوب من أرض الكنوز فيما بين كروسكو ووادي حلفا يعيش « الفدجة » على ضفتي النيل الشرقية والغربية ، وهجرتهم إلى هذه الديار حديثة ومراكزهم الكبرى فى عنيبة وأبريم . ويطلق النوبيون على سكان الضفاف الشرقية اسم « مانوكى » وعلي سكان الجهات الغربية اسم « تينوكى » وليس بين سكان العدوتين فرق فى الواقع إلا فى الأسماء .

أما نوبيو السودان فينقسمون إلى مجموعات ثلاث هى الدناقلة والمحس والسكوت ، وأرض الدناقلة مما يصلح للزراعة ، ومع اشتغالهم بهذه الحرفة إلا أنهم لم يقتصروا عليها ، بل إنهم أنشط الجماعات فى السودان جميعاً ، فى التجارة وفى غيرها من الحرف . أما أرض المحس والسكوت فمحدودة الموارد ولذا كثرت الهجرة من هذا الإقليم . ولقد كانت أحياناً هجرات جماعية كهجرة المحس إلى جزيرة توتى حيث يلتقى النيلان .

ويتكلم النوبيون جميعا العربيــة ، بيد أن لهم بجانبها لغتهم الأصلية وهى لغة غير مكتوبة يسمونها « الرطان » ويعرفها جميع النوبيين ولـكنها تختلف اختلافا قليلا من إقليم إلى إقليم فبينما تؤلف لهجات الـكنوز والدناقلة مجموعة متشابهــة تؤلف لهجات المحس والسكوت والفدجة مجموعة أخرى تختلف عن الأولى بعض الاختلاف .

وعندما يدخل النيل أرض النوبة . فهو يجتاز الصحراء التي تمتد عن شمال ويمين فى سهل منبسط تغطيه الرمال والحصى ، وقد ترتفع بعض جهات السهل فتـكون تلالا متفرقة قليلة الارتفاع وقد تـكثر هذه التلال احيانا وتتقارب ، فتبدو وكأنها سلسلة جبلية متصلة الحلقات ، وتـكون أرض الوادى على شىء من السعة ولـكن حافة الصحراء تطغى عليها أحيانا فتجعل منها أحواضاً متفرقة منعزلة ، هى مراكز تجمع السكان ومناطق النشاط الاقتصادى . وفيها تقوم الزراعة معتمدة على الرى الحوضى الذى جاء إليها من الشمال ، وتقرب مساحة هــذه الأحواض من مائة ألف فدان ولـكن قلما تروى كلها فى عام واحد . ومن أكبرها حوض واد حامد فى مركز شندى ، وحوض كرمة فى دنقلة ، وحوض فرس فى حلفا .

وبعد وادى حلفا يشتد ضغط الصحراء فتكاد تقضى على الوادى ، وتبدو الأرض مقفرة مسرفة فى الوحشة ، وتصبح الهضاب مولعة بالنيل تابى إلا أن تغسل أقدامها فى مياهه ، ويتطلع المسافر على العدوتين فلا يجد أرضا مزروعة يزيد عرضها على مائتى متر ، والهضاب هنا من الجرانيت والحجر الرملى الذى حولته الشمس إلى صخر أميل إلى الاحمرار ، وقد تترك التلاع هنا وهناك سهولا من الرمال صفراء ، وربما غير هذا المنظر بين الحين والحين دوحة من النخل الباسق أو من شجر الخروع والصفصاف . وقد توجد بعض السواقى والشواديف ، تماما كما كانت الأحوال منذ آلاف السنين . إن الزمن يدور ولكن بلاد النوبة لا تأبه بالزمن ولا تهتم بدورانه ! وللسواقى صوت أجش رتيب يقطع الوحشة ويبدد الصمت ، ويصر النوبى على أن يكون لساقيته حسا ، ولو كان ذلك لخلل فى صناعتها ، وربما كان هدفه أن يبدد الوحشة ويطرد الشرير من الأرواح . وقد يلتقى نظرك بحقول صغيرة غطتها الرمال التى تسفيها الرياح . لقد كانت مزروعة ولكن غلتها أقل مما يبذل فيها من مجهود ، فتركها صاحبها سعيا وراء عمل آخر أكثر ربحاً وأوفر إنتاجا .

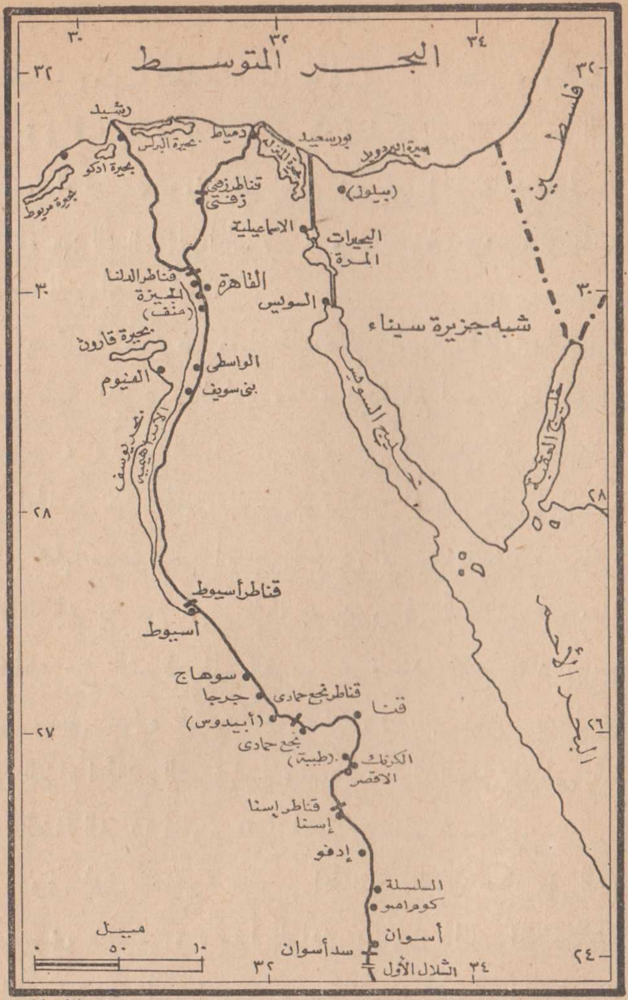
نهاية المطاف

يدخل النيل أرض مصر وهو يشكو الضيق ، فالهضاب تطغى على واديه حتى لتكاد تخمد أنفاسه ، ولكنه مع هذا يستطيع أن يواصل رحلته وأن يجرى على أرض الكنانة لمسافة تبلغ ١٥٠٠ كيلو مترا على وجه التقريب ، وفى هذه الرحلة الطويلة لا يلتقى به أى رافد يعوضه عما يفقد ، فهو قد ودع آخر روافده قبل أن يخرج من السودان ، ومن هنا كانت مصر هبة النيل ، ومن هنا كانت حياتها تعتمد على مياه يحملها النهر الخالد من وراء الحدود ، ولقد كانت صحارى مصر تمد النهر بشىء من الماء فى زمن قديم ، وبخاصة صحارى الشرق ، يوم أن كان المناخ أحسن حالا مما هو الآن ، وكانت السماء سخية لم تعرف البخل ولا التقتير ، وخلّف هذا العصر الممطر أودية ضخمة تذكر بماض حافل ، ولا تزال الأودية تنحدر إلى النهر بلا ماء ، ومنها العلاقى ومنابعه العليا فى داخل حدود السودان وينتهى إلى النيل شمالى ثنية كورسكو ، ومنها خريط وشعيت ويتصلان بالنيل عند كوم أمبو وقد حملا من الرواسب ما ملآ به حوضاً ينتج الآن ما تحتاج إليه مصر من

السكر ، ومنهـا الحمامات ومنابعه فى نواحى القصير ، وكانت له شهرة فى التاريخ ، إذ كان طريقا تسلكه القوافل فيربط النيل بالبحر الأحمر ، ومنها قنا الذى شذ عن إخوته جميعا فكان مجراه من الشمال إلى الجنوب ، ومنها حوف ودجلة ونهايتهما فى ضواحى القاهرة .

يدخل النيل أرض مصر عند دائرة العرض الثانية والعشرين وهو ضيق المجرى والوادى معا ، فإذا بلغ أسوان بدأ الوادى ينفرج ، وأخذ السهل الرسوبى فى الاتساع ، والصخور على الجانبين من الحجر الرملى وتستمر كذلك حتى إسنا حيث يحل محلها صخور من الحجر الجيرى الأغبر ، وعند قنا تقترب الحافة الغربية من النهر فإذا به يدور فى ثنية كبيرة ويصبح اتجاهه من الشرق إلى الغرب ، وعند نجع حمادى يعود إلى سابق عهده فيتجه نحو الشمال ، والنهر من بعدها يميل إلى التزام الجانب الشرقى من واديه ، ويترك السهل الفيضى يتسع على الضفة الغربية فتقوم عليها المدن ويستقر السكان .

وفى شمال القاهرة تنفرج الحافتان اللتان حكما على السهل الرسوبى بالضيق ، ويبدأ الوادى يكون دلتاه المثلثة الشكل والتى يحددها الآن فرع دمياط فى الشرق وفرع رشيد



(شكل ٥) نهاية المطاف (النيل فى مصر)

فى الغرب ، وكان يحددها فيما مضى فرعان أخريان ، ولم تكن الدلتا دائماً كما هى الآن ، بل كانت كدالات الأنهار جميعا فى فجر حياتها ، ارضا كثيرة المناقع لم تتحدد فيها مجارى الماء ولم يتخذ النهر فيها طريقا أو طرقا ثابتة يسلكها حتى البحر ، بل كان دائم التردد بين فرع وآخر ، كانت فروعه العديدة تحمل الطمى فى مياهها فترسب منه ما ترسب فى مجاريها ، حتى إذا ما ضاق قطاع مجرى عن حمل تصرفه ، فاضت المياه على الجانبين بما تعلق فيها من رواسب ، ويستمر بها الحال كذلك حتى يرتدم المجرى أو يكاد بما تجمع فيه من الطمي عاما بعد عام ، وتتحول مياه الفيضان إلى منخفض آخر عساها تكون مجرى جديدا يحملها إلى البحر .

ويذكر هيرودت المؤرخ الإغريقى أن الدلتا على عهده كان يشقها سبعة فروع رئيسية للنيل ، وأن خمسة منها كانت فروعا طبيعية ، أما الفرعان الآخران فصناعيان ، وكان فى القسم الشرقى من الدلتا ثلاثة فروع هى بالترتيب من الشرق إلى الغرب .

— الفرع البيلوزى وكان مصبه عند مدينة بيلوز (الفرما) التى حمل اسمها .

— الفرع السائيتى وكان يصب عند ام فارج إلى الشرق من بور سعيد بنحو ٢٠ كيلو مترا .

— الفرع المنديسى وكان يصب قريبا من بلدة الديبة الحالية .

أما وسط الدلتا فلم يكن يجرى فيه سوى فرع طبيعى واحد يتفرع من النيل الكبير عند رأس الدلتا ويصب عند فتحة البرج ويعرف باسم الفرع السبنيتى ، وفرع آخر صناعى يعرف باسم الفرع البوكولى كان يتفرع فى شمال منود ويسير مع فرع دمياط الحالى حتى مصبه .

وفى غرب الدلتا وجد فرعان أحدهما طبيعى وهو الفرع الكانوبى ، والآخر صناعى وهو الفرع البولبيتى ، أما الأول وهو على ما يقال كان الفرع الرئيسى للنيل أو على الأقل كان أحد الفرعين اللذين يحدان الدلتا ، فكانت بدايته عند بلدة وراق العرب الحالية ، ثم يسير فى اتجاه شمالى غربى حتى يصب عند ساحل « أبو قير »[1] حيث نشأت مدينة هرقل Heraclium وهى الطابية الحمراء الآن ، واما الآخر وهو الفرع الصناعى فكان يخرج من الأول عند قرية « زاوية البحر » الحالية ،

---

(١) عاملنا « أبو قير » وامثالها معاملة الكلمات المفردة .

ويتجه شمالا سالكا مجرى فرع رشيد الحالى حتى يصب فى البحر عند بلدة بولبيتين التى حمل اسمها ، ويذكر بلينى أن هذا الفرع واخاه البوكولى حفرا فى العصر اليونانى ليصبح بهما النيل ذا فروع سبعة ، وهو عدد له فى العقائد اليونانية القديمة صفات خاصة .

هذه هى الفروع التى ذكرها هيرودت مؤرخ القرن الخامس قبل الميلاد وهى نفسها الفروع التى ذكراها استرابون مؤرخ القرن الأول الميلادى ، وبطليموس وقد عاش فى القرن الثانى بعد الميلاد ، وإن وجد بينهم اختلاف فهو تحريف فى الأسماء أو اختلاف فى بعض التفاصيل .

ثم يأتى بعد ذلك مؤرخو العرب ومنهم الخوارزمى فى القرن السابع الميلادى (الثانى الهجرى) وابن عبد الحكم فى النصف الأول من القرن الثامن الميلادى (النصف الأول من القرن الثالث الهجرى) وابن سيرابيون فى النصف الثانى من القرن نفسه ، ثم الإدريسى فى القرن الثانى عشر ، فنجدهم يتناولون فروع النيل فى إيجاز ، ويظهر من كلامهم الاهتمام بفرعين رئيسين ، فيذكر الخوارزمى أن الفرع الشرقى يصب عند دمياط والغربى عند الإسكندرية ، أما الفروع الأخرى فعددها خمسة

وتصب فى مناطق بين الفرعين ، ويوافقه على ذلك ابن عبد الحكم ومن كلامهما يفهم أن فروع النيل فى شرق الدلتا قد اندثرت وتحولت المياه جميعا إلى فروع الوسط والغرب .

وتتوالى الأيام ، وتبلغ الدلتا رشدها ، وتاخذ فروعها تندثر الواحد بعد الآخر حتى لا يبقى منها سوى فرعى دمياط ورشيد ، ولكنها تستبقى من مظاهر الحداثة تلك البحيرات والمناقع التى تحف بقاعدتها على ساحل البحر المتوسط ، ففي الشرق بحيرة صغيرة فى شمال شبه جزيرة سيناء تعرف ببحيرة البردويل أو سبخة البردويل ، لا يفصلها عن البحر إلا حاجز ضيق من الشطوط الرملية التى يكونها البحر ، ويصل بين المائين منفذ ضيق تسده الرمال أحياناً فإذا البردويل فى عزلة . وإلى الغرب من قنال السويس بحيرة المنزلة أكبر بحيرات مصر جميعاً إذ تربو مساحتها على ٤٠٠ ألف فدان وهى لا ترتبط بالبحر إلا بفتحة ضيقة هى فتحة « أشتوم الجميل » وفى منتصف المسافة تقريباً بين فرعى دمياط ورشيد بحيرة ثالثة هى بحيرة البرلس وتشبه إلى حد كبير بحيرة البردويل فى الشكل العام وفى الموقع من البحر ، فكلاهما أشبه بمثلث حاد الزاويتين ، وفى شمالها يكون البحر قوساً عظيما يحصر البحيرة بين ضلعيه . وتبلغ مساحة

البرلس نحو ١٤٠ ألف فدان ، ويصلها بالبحر بوغاز البرلس ، وساحل البحر على جانبيه منخفض تحف به كثير من كثبان الرمال كما هى الحال فى شبه جزيرة سيناء .

وإلى الغرب من فرع رشيد وخلف خليج «ابو قير» بحيرة مثلثة الشكل تقريباً تمتد على ٣٥ ألف فدان هى بحيرة إدكو ومنفذها الضيق إلى البحر عند بلدة المعدية ، وإلى الغرب منها كانت توجد بحيرة المعدية التى لا وجود لها الآن بعد أن جففت اراضيها منذ أواخر القرن الماضى وأصبحت أرضا زراعية تمون الإسكندرية بحاجتها من الغذاء .

وتقع وراء الساحل خلف مدينة الإسكندرية بحيرة أخرى طويلة مساحتها نحو ٥٩ ألف فدان هى بحيرة مريوط، وإنها المختلفة عن بحيرات مصر الشمالية جميعاً ، فليس لها بالبحر صلة ، وليس الحاجز بينهما من الرمال وإنما هو من الجير الذى يرتفع فيكون تلالاً صلبة بيضاء .

هذه البحيرات منشؤها عدم تكامل الإرساب النهرى ، ففى بعض الجهات تتراكم الرواسب التى يجلبها النهر من حصى ورمل وطين بينما تبقى الأجزاء الأخرى منخفضة محصورة بين الرواسب المرتفعة فتتكون البحيرات والمناقع التى يعمل على فصلها

من البحر تكون الشطوط الغرينية والرملية والجيرية فى بعض الأحيان . فبحيرة البردويل خلقتها رواسب الفرع البيلوزى الذى كان يتصل بالبحر فى غربها ، ويرجع تكون بحيرة المنزلة إلى فروع النيل الشرقية، وترتبط البرلس بالفرع البولبيتى وكان مصبه فى غربها وقد يكون الفرع السبينتى الذى يجري فى شرقها قد أسهم فى ذلك بنصيب . أما بحيرة ادكو فقد تكونت نتيجة لما كان يحمله الفرع الكانوبى من رواسب يظن أنها كانت وثيقة الصلة بخليج أبو قير ، أى أنها كانت خليجا فى خليج ، ويقال أن هذه الصلة الوثيقة استمرت إلى القرن السادس عشر ثم قطعها تكون شطوط الرمال ، ولقد كانت بحيرة مريوط القديمة تمثل حوضا مقفلا تنصرف إليه مياه النيل وكانت على عهد يوليوس قيصر بحيرة عذبة تغذيها قنوات تأخذ من الفرع الكانوبى ما تجرى به من مياه وكانت تقوم على ضفافها مزارع الزيتون والكروم ، وكان لنبيذ مريوط شهرة ، ولطالما أسكرت به كليوبترا من خضع لها من قياصرة الرومان .

وبين بحيرتى أدكو ومريوط كانت تمتد بحيرة لم يعد لها وجود ، تلك هى بحيرة المعدية أو « أبو قير »التى سببت التباسا لكثير من الرحالة والجغرافيين فخلطوا بينها وبين بحيرة أد كو ،

ذلك أنها بعد انفصالها عن البحر أخذت تجف بالتدريج وأصبحت حوضا واسعا يقع تحت منسوب سطح البحر ، تصل إليه مياه الفيضان أو مياه الرشح ، فيتسع فيه مسطح الماء ، فإذا جاء فصل الجفاف انكمش إلا مناقع بسيطة متفرقة ، ويمر بها الرحالة حينا فإذا بها بحيرة واسعة ويمرون بها حينا آخر فإذا بها لا شيء إلا بركاً ومناقع ، ومن هنا كان الخلط حتى انتهى أمر البحيرة إلى جفاف .

ويشير المقريزى إلى الطريقة التى تكونت بها بحيرة ادكو فى قصة ينقلها عن ابن عبدالحكم ،فيذكر أن أراضيها كانت مزروعة بالكروم وكانت تملكها امرأة المقوقس وكانت تدر عليها ربحا طائلا من النبيذ وكان النبيذ من الكثرة بحيث تعذر عليها التصرف فيه ، فطلبت من مزارعيها أن يدفعوا لها الدنانير بدلا من النبيذ ، فلما عجزوا عن ذلك تركت المياه تتسرب إلى أراضيهم فتحولت المنطقة إلي بحيرة تصطاد منها الأسماك ، ويشير المقريزى بعد هذا إلي أن البحيرة جفت مرة أخرى على عهد العباسيين .

وليس كلام مؤرخ القرن التاسع ابن عبد الحكم خرافيا كله كما يتوهم بعض الجغرافيين ، بل لعل فيه شيئاً من الصحة بمعنى أن هذه المناطق أو جزء منها على الأقل كان مزروعا

ثم طغت عليه المياه ثم جفف بأعمال فنية حجزت عنه ماء النيل أن ينصب فيه ، ومياه البحر أن تطغى عليه ، ألم يحدث مثل هذا فى العصر الحديث ؟ ألم تطغ المياه على بحيرة مريوط فى أوائل القرن الماضى نتيجة لقطع الجسور ، ألم تجفف بحيرة « أبو قير » لتصبح أرضاً زراعية منتجة ! ؟ ثم إن ابن عبد الحكم لا ينكر أن هذه البحيرة مدينة بوجودها للفرع الكانوبى القديم ، وهذا هو الرأي الذى نجمع عليه الآن .

وكان ساحل الدلتا على البحر يتذبذب وهى تتكون فى البلايوسين والبليستوسين نتيجة لتذبذب العلاقة بين مستويات النيل ومستويات البحر ، ولم يستقر الساحل حتى فى العصور التاريخية ، فالأدلة كثيرة على طغيان البحر فى شرق الدلتا ووسطها وغربها على السواء . وقد كانت بحيرة البردويل على عهد بلينى بطيحة ضحلة ، وكان بالقرب منها مدينة « غردم » وآثارها اليونانية والرومانية تقع الآن مغمورة تحت الماء . وفي بحيرة المنزلة نجد آثار البلاد والقرى التى كانت مزدهرة فى القديم وهى الآن أطلال داخل حدود البحيرة أو فيما حولها من البطائح ، ومن أمثلة هذه « البلاد تنيس » وكانت في العصور الوسطى ذات شهرة عظيمة كقلعة محصنة وكمركز لصنع المنسوجات الدقيقة ثم غزتها

المياة فإذا هي أطلال على جزيرة فى البحيرة تذكر بمجد قديم .

وثبت بالبحث أن مدينة الإسكندرية الرومانية تقع تحت مستوى سطح مدينة الإسكندرية الحالية بسبعة أمتار ، وأنه لكى نعثر على آثار الإسكندرية الإغريقية لابد من الحفر إلى نحو عشر أمتار ، وكذا حفرت الآبار بحثا عن قبر الإسكندر ، وهو لم يدفن فى بئر وإنما كان قبره ضريحا على الأرض مرفوع البناء .

لقد طغى البحر علي سواحل الدلتا الشمالية وليس بين العلماء من يشك فى حدوث هذا الطغيان ، إنهم يجمعون عليه ولكنهم يختلفون في سبب حدوثه ! هل ارتفع سطح الماء ؟ أم انخفض سطح الأرض ؟ أم حدث الأمران معا ؟ والذين يقولون بأن طغيان البحر يرجع إلى إرتفاع منسوب المساء قلة ، وتذهب الكثرة إلى أن منسوب البحر لم يتغير منذ آلاف السنين وإنما حدث الطغيان نتيجة لهبوط سطح الأرض بسبب توالى إرساب الكميات الهائلة من الطمى يحملها النيل وفروعه ، وربما حدث تغيير فى منسوب البحر ولكنه كان من الضآلة بحيث لا يمكن أن يترك مثل هذه الآثار .

أما زمن حركة الهبوط هذه ، فإن المقريزى وهو أول من كتب عن طغيان مياه البحر المتوسط على شمال الدلتا ، يرجع

بها إلى ما قبل الفتح العربى ويذكر أن طغيان البحر كان تدريجيا فغمر الأراضى المنخفضة ثم العالية ! ويشير إلى منطقة طناح المرتفعة ويقول إن غمرها تم قبل الفتح الإسلامي بنحو مائة عام . ويتفق معظم الكتاب مع المقريزى . وقد يتحفظ بعضهم فيقول إن الحركة بدأت تظهر آثارها فى العصر اليونانى ثم أصبحت واضحة فى أواخر عهد الرومان وبداية عهد العرب .

ماء الحياة

ليس النهر سوى مائه ، وعظمة الأنهار بمقدار ما يجرى فيها من المياه ، والنيل لاشك فى عظمته ، يجمع مياهه من مساحة واسعة من الأرض ، ثم يجرى بما حمل مسافات طويلة ليحيي شعوبا وليبنى حضارات ، وما ارتبط ناس بنهر كما ارتبطنا نحن المصريين بالنيل ، وما عنى قوم بشئون الماء منذ أقدم العصور كما عنينا ، وهل كنا إلا ثمرة واحة مخضلة ، هى منحة من النيل الوفى الكريم .

ونقف على الأحوال المائية لنهر برصد مناسيبه وتصرفاته في مناطق متعددة وفى أوقات مختلفة ، ونحلل الأرصاد لنستخلص النظم الدورية للنهر ، ونعرف علاقتها بالظاهرات الطبيعية الأخرى التى يخضع لها النهر ، وهدفنا من هذا كله ضبط النهر حتى نستثمر مياهه على أكمل وجه في أغراض الرى والملاحة وتوليد الكهرباء وهى عملية متشعبة تشمل عدة جوانب منها توفير المياه وتخزينها وتوزيعها ، ومنها صيانة مجرى النهر وبخاصة حيث يجرى فى السهول فيكثر الإرساب وتكون الجوانب ضعيفة بطبيعتها .

وتتوقف الأحوال المائية للنهر على مقدار ما يصل إليه من الماء ومقدار ما يفقده منه ، ومصدر مياه الأنهار هو المطر أولا ثم ذوبان الجليد فى بعض الأحوال، ويفقد النهر مياهه عن طريق التبخر بسبب ازدياد الحرارة او بتسرب جزء من الماء بسبب مسامية الصخور ، وقد يحدث بسبب اعتراض الحواجز النباتية للمجرى فيفيض الماء على العدوتين ويتعرض للضياع ، وفى جميع الأحوال يكون لدرجة انحدار المجرى الأثر الواضح فى الصورة النهائية لمائية الأنهار .

ويلاحظ أن عوامل الزيادة أو النقص هى معظمها من صنع المناخ ،ولعل أهمها جميعاً فيما يتعلق بالنيل العظيم « هو المطر » ، فالجليد لا أثر له في نظام النهر وحرارة المناطق المدارية رتيبة لا تتفاوت درجاتها إلا بمقدار ، والبخر يكاد يكون ثباتا لثبات معدل الحرارة ، ولذلك كان ذا أثر ضئيل ، وتعترض السدود النهر ولا يزال فى أول الطريق فتبدد من مياهه قدرا غير قليل .

ولابد من الوقوف على أمرين لنلم بأحوال النهر ، لابد من معرفة مقدار ما يحمل من ماء ، ولا بد من معرفة نظام جريان هذا الماء فى مختلف الشهور ، وهذا وذاك يتطلب رصد

المناسيب والتصرفات ، والنيل إذا قورن بغيره من أنهار الدنيا الكبري سبقها جميعا كنهر عنى بأمره الدارسون ، فعلى جانبيه نحو ٩٠ مقياسا للمناسيب منها مقياس الروضة ويرجع إلى أكثر من عشرة قرون ، وما هو بأقدم مقياس على النيل ، فقد سبقه مقاييس بناها الفراعين .

والمناسيب هى مقاييس لمقارنة الارتفاع الذى يقاس بالنسبة إلي نقطة الصفر المصطلح عليه ، وقبل أن تعمل الميزانيات على حوض النيل كانت نقطة الصفر فى المناسيب اختيارية ، وكان اختيار الصفر يرجع إلي أوطى منسوب يصل إليه النهر ، فإذا قلنا إن منسوب النيل فى الروصيرص هو ١٥ فمعنى هذا أن مستوي النهر قد ارتفع ١٥ مترا فوق نقطة الصفر في الروصيرص ، وهذا هو المنسوب الاختياري أو العرفى ، ويفيد فى معرفة تذبذب النهر .

ولكن بعد عمل ميزانية نهر النيل حددت نسبة المقاييس فى كثير من المناسيب على أساس مستوى أفقى واحد ، وهل هناك أفضل من مستوى سطح البحر ليتخذ أساسا — ؟ وهذا هو المنسوب « المحول » وهو مستخدم فى مصر من أقصى

الجنوب إلى أقصي الشمال . وهذه هى الطريقة المضبوطة لمعرفة الارتفاعات ، فإذا قرأنا أن مقياس الروضة قد سجل ١٧ مترا فإن معنى هذا أن منسوب النيل عند الروضة قد أصبح أعلى من مستوى سطح البحر بهذا المقدار .

وقياس المناسيب قد يعطى فكرة تقريبية عن التصرف ، ولكن أدق منها قياس التصرف نفسه ، أى معرفة كمية المياه التى تمر فى موقع معين فى وحدة زمنية معينة هى المتر المكعب فى الثانية ، المليون متر مكعب فى اليوم ، أو المليار متر مكعب فى السنة ، ويوجد على النيل نحو ٦٠ محطة لقياس التصرفات ولبعضها أهمية خاصة إذ يقاس فيها التصرف بطريقة دائمة منظمة .

وثمة جانب له أهميته فى قياس التصرف ، وهو معرفة حركته وانتقال التغيرات التى تطرأ عليه ، فإن هذا يساعد على تنظيم شئون الماء وبخاصة على اتقاء أخطار الفيضانات العالية ، فإذا سجل مقياس الروصيرص العرفي مثلا رقما عاليا أمكن لنا فى أسفل النيل أن نتخذ التدابير الواقية من الفيضان العالى قبل أن يدهمنا بعشرة أيام .

وتصل التغيرات إلى أسوان فى عدد من الأيام يوضحها ما يلى من أرقام :

الموقع	فى موسم الانخفاض (٣٠ أبريل)	فى موسم الارتفاع (١٠ سبتمبر)
من الناصر	٤٧	٥١
من الملكال	٤٣	٢٢
من تانا	٢٩	١٣
من الروصيرص	٢٥	١٠
من سنار	٢٢	٩
من الخرطوم	١٨	٧
من العطبرة	١٤	٦
من وادى حلفا	٤	٢

ويلاحظ أن المدة اللازمة لوصول التغيرات فى الفيضان أقصر منها فى التحاريق بعامة ، ولا يشذ عن ذلك إلا تغيرات الناصر فهي في التحاريق أسرع منها فى الفيضان ، ويقال فى تعليل هذا إن مياه النيل الأزرق تحجز مياه النيل الأعظم فى الفيضان فيزداد التخزين ، ويطول زمن الوصول إلى أسوان ، ربما كان هذا سببا ، ولكنه ليس السبب الوحيد وإلا لتأخرت أيضاً مياه الملكال ، ويرجح رجال الرى وجود عملية تخزين

طبيعية فى التربة المسامية فيما بين الناصر والملكال . تتطلب زمنا حتى تتم فيتأخر وصول التغيرات .

ولكل من أجزاء النيل حظ متفاوت فى تغذية النهر بالماء ، واوفاها حظا هو النيل الأزرق الذى يسهم سنويا بخمسين مليارا من الأمتار المكعبة وللعطبرة ١٢ مليارا وللسوباط ١٣ مليارا ولهضبة البحيرات ٢٨ مليارا ولا يصل من هذه المياه التى تبلغ نحو ١٠٣ مليار إلى أسوان سوى ٨٥ مليارا . أما الباقى فيضيع فى منطقة السدود وفى صحارى بلاد النوبة .

وهضبة البحيرات هى المنابع الأولى للنيل ، وهى يسقط مطرها طول العام مع زيادة فى الربيع والخريف ، ومن ثم أصبح مستوى النيل فيها ثابتا تقريبا خصوصا وهو لا يعتمد على انتظام سقوط المطر فحسب ، بل إن البحيرات وبخاصة فكتوريا تلعب دورا فى التنظيم ، فهى تخزن فى صدرها الواسع مياه الأمطار ثم تصرفها إلى النهر بانتظام ، وتصرف النيل عند شلالات ريبون هو ٦٦٧ م مكعب فى الثانية ، وهو قدر لا يزيد على ١٨٪ مما تفقده البحيرة من مائها ، أما الباقى فيسترده الجو بخارا ، ولهذا يجمع المهندسون على عدم صلاحية بحيرة فيكتوريا

لتكون خزانا صناعيا للنيل ، بعكس أختها البرت الضيقة المساحة والمرتفعة الجوانب .

ويخرج النيل من بحيرة البرت أكثر ماء مما كان ، فمتوسط تصرفه عند وادلاى ٧٨٧ متراً مكعباً فى الثانية ، ولا يختلف من شهر إلى شهر إلا بقدر ضئيل ، ويبلغ أقصى تصرفه فى نوفمبر وديسمبر وأدناه فى أبريل ومايو ، فأمطار منطقة بحيرة البرت الغزيرة تكون فى أكتوبر ونوفمبر وفى شهر ديسمبر يقل التبخير وهذه هى أمطار الخريف ، اما أمطار الربيع فهي وإن تكن أكثر كمية إلا أنه يعقبها فصل الصيف وفيه ترتفع نسبة التبخير .

وعند نيمولى يبدا بحر الجبل ويكون مجراه ضيقا وتياره سريعا وينصب فيه عدد من الروافد وبخاصة فى أوائل الصيف فيرتفع تصرفه من ٨٦٦ متراً مكعباً فى الثانية فى فبراير إلى ١٣٧٢ متراً مكعباً فى سبتمبر، ولكنه لا يلبث أن يدخل منطقة السدود فيفقد الكثير من مائه ، وكأنما يصر النهر على أن لا يحمل إلى بحيرة نو سوى قسط محدود من الماء ، ومهما عظمت مياه الفيضان فهو يبددها في البطائح والمناقع ولا يتاثر به أدنى بحر الجبل إلا بمقدار .

وإذا كان الفاقد فى بحر الجبل عظيما فهو أعظم فى بحر الغزال الذي لا يسهم فى مائية النيل بما يتفق ومساحة حوضه ، إنه يمد النيل الأبيض بعشرين مترا مكعبا فى الثانية على مدار العام وما أتفهه من نصيب ! وهكذا يصبح كل ما يصل إلى النيل من منابعه الإستوائية ٤٧٥ متراً مكعباً فى الثانية وهو مقدار لا يعادل أكثر من ١./ مما يسقط على الأقاليم الإستوائية من أمطار .

أما السوباط فيبلغ إيراده نحو ١٣٫٣ مليار متر مكعب يسهم البارو فيها بـ ٩٫٧ مليار أى بنحو ٧٢./ ويسهم البيبور بـ ٢٫٣ مليار أى ١٧./ والباقى وقدره ١٫٣ مليار أو ١١./ يأتى من الأخوار والروافده الأخرى التى تتصل مباشرة بالسوباط ، ومن ثم فإن السوباط يعوض النيل بقدر ما يفقده فى منطقة السدود ، ويأتى فيضان السوباط متاخرا شهرين عن فيضان النيل الأزرق فيساعد على عدم انحطاط مناسيب النيل الأعظم بسرعة عقب انتهاء فيضان النيل الحبشى الكبير . وليس هذا التاخر فى فيضان السوباط نتيجة لخلاف موسم المطر بقدر ماهو ناشىء عن عملية تخزين طبيعية فى السوباط نفسه وفيما يتصل به من أخوار ، ويحجز السوباط مياه بحر الجبل وبحر الزراف

عندما يفيض وتاخذ هى بثارها فتحجز مياهه حينما تشح فيه المياه .

ويتكون إيراد النيل الأبيض من مياه بحر الجبل ونهر السوباط ، وتختلف نسبة ما يأتى به كل منهما من حين إلى حين ، فالصدارة لبحر الجبل فى الربيع وهى لنهر السوباط فى الخريف ، وتصرف النيل الأبيض ٨٢٠ متراً مكعبا في الثانية فى المتوسط . ولكنه يتفاوت من موسم إلى موسم فيبلغ أدناه فى شهر أبريل ثم يأخذ فى الارتفاع حتى يونية بسبب وصول مياه السوباط فإذا ما فاض النيل الأزرق حجز مياه النيل الأبيض فانخفض تصرفه فى يولية وأغسطس ولكن تصرفه يعود إلى الارتفاع بسرعة بمجرد انتهاء فيضان أخيه الحبشى فيصل إلي قمته فى أكتوبر ونوفمبر .

والنيل الأزرق هو مصدر الفيضان ولا تسهم بحيرة طانا التى يخرج منها فى مائيته إلا بقدر لا يزيد على ١١٪ فى فصل الجفاف ويقل عن ٣٪ فى موسم الفيضان ، ومتوسط تصرفه ١٦٢٠ متراً مكعباً فى الثانية،ولكن الفرق عظيم بين أعلى منسوب وأدني منسوب ، وينخفض النهر إلي حده الأدنى فى أبريل ثم يبدأ يرتفع بسرعة فى يوليه فإذا بتصرفه يتضاعف ثلاث عشرة

مرة عن تصرفه فى يونية ، ويحتفظ النهر بالمستوى العالى حتى سبتمبر . ثم يعود إلى الهبوط بنفس سرعته فى الصعود . ويسهم النيل الأزرق بالجزء الأكبر من مياه النيل فإيراده نحو سبعة أمثال إيراد النيل الأبيض في موسم الفيضان ولكن الصدارة تصبح للنيل الأبيض فى موسم التحاريق فيمد النهر بنحو ٨٠٪ من مائه فى هذا الموسم .

أما العطبرة ، آخر روافد النيل فهو نهر جاف فى خمسة شهور من السنة ثم يجرى بالماء فى شهر يونيه ويرتفع منسوبه فجاة فى يولية ويبلغ مداه فى أغسطس ثم يبدأ فى التناقص حتى يجف فى يناير ومتوسط تصرفه ٣٨٠ متراً مكعباً فى الثانية ، وإذا اتفقت ذروة الفيضان فى النيل الأزرق والعطبرة فقد أصبح الفيضان عاليا يخشى خطره ولابد من اتخاذ الوسائل فى مصر لتوقيه .

وعند أسوان يبلغ النيل أقصى درجات انخفاضه في شهر مايو ثم لا يلبث أن تظهر به بوادر الفيضان فيرتفع منسوب الماء حتى يبلغ ذروته فى أغسطس ، ومصدر الفيضان الأمطار الغزيرة التى تسقط على الحبشة في فصل الصيف وهى تتفاوت من حين إلى حين نتيجة لاختلاف ظروف الضغط . فى القارة الإفريقية

وعلى المحيطين الهندى والأطلسى ، وتختلف معها حالة الفيضان فطورا هو عال خطر يخشى أن تطغى مياهه على الجسور وطورا هو منخفض شحيح يهدد الزرع والضرع ، ولكن النيل فى معظم الأحوال وفى كريم ، لا يغضب إلا لماما ، ولا يشح إلا ليعود إلى ماعرف عنه من جود ، فإذا مصر مخصبة ، وإذا بها تهتز وتربو وتنبت من كل زوج ، « كلوا وارعوا أنعامكم . . إن فى ذلك لآيات لأولى النهى » صدق الله العظيم . .

كبح الجماح

عمدت مصر إلى استخدام مياه النيل فى رى أراضيها منذ فجر تاريخها. وتتبع نظاما يستمر منذ ذلك العهد حتى القرن التاسع عشر هو نظام «رى الحياض» وفيه يترك ماء النهر فى فصل الفيضان ليغطى أراضى الحياض بعمق متر ونصف في المتوسط ولمدة ٤٥ يوما ، حتى إذا ما انخفض منسوب الماء فى النهر ، عادت مياه الحياض إلى مجراه بعد أن تكون الأرض قد رويت استمداداً لظما طويل ، وبعد أن يكون الغرين الذى حمله النهر من هضاب الحبشة قد أمد التربة بخصب جديد ، يعوضها عما فقدته فى العام السابق .

وكانت أراضى الصعيد فيما عدا الفيوم مقسمة إلى أحواض ، تفصل بينها سدود ترابية تمتد بين جسر النهر وحافة الصحراء ، وكانت تغذى هــذه الأحواض ترع تمدها النيل بالماء فى زمن الفيضان ، فإذا جاء الجفاف وهبط منسوب النهر أصبحت مآخذ هذه الترع أعلى من منسوب النهر فلا يصل إليها المــاء ، ولم تكن هناك قناطر تنظم العلاقة بين النهر والترع اللهم إلا سدود من الحجارة تزال سنويا حينما يراد لمياه الفيضان

أن تدخل إلى الأحواض ، ويكون هذا عادة حوالى الأسبوع الثانى من شهر أغسطس ، بعد أن يجمع محصول الذرة من الحقول ، وكان لكل مجموعة من الأحواض قناة تحمل إليها المياه ، ومن هذه القنوات ما هو صغير لا يغذى سوى حوض أو حوضين ، ومنها ما هو عظيم الأهمية يمتد لمسافة طويلة ويخدم مساحة من الأرض واسعة . وبعد شهر ونصف يصرف الماء فمن صالح الزراعة ألا يبقى أكثر من ذلك ، ويتم هذا الصرف فى أوائل شهر أكتوبر ويتأخر التاريخ كلما اتجهنا نحو الشمال ، ولكل مجموعة من الأحواض مخرج يحمل الماء الذى استنفد أغراضه إلى مجرى النهر بعد أن ينخفض فيه الماء .

وينجح هذا النظام للرى فى مصر فهو متفق مع أحوال النهر ملائم لمناخ البلاد ، ولو أن الفيضان كان مبكراً أو جاء متأخراً عن الموعد الذي رسمته له الأقدار ، لما كان من السهل تطبيق نظام رى الحياض ، لو كان الفيضان فرضا فى أبريل ومايو لما ناسب الغلات الشتوية كالقمح والشعير التى تكون فى دور نضوجها ، ولما ناسب الغلات الصيفية التى لم يحل بعد موعد زراعتها ، ولو فرض وكان الفيضان يأتى فى موعده، ولكن بدلا من أن يعقبه فصل خريف معقول الحرارة ، أعقبه فصل شتاء

بارد ، لما ساعد هـذا على نجاح نظام الرى الحوضى كذلك . فاتفاق مواعيد الفيضان مع المناخ ومع الغلات الزراعية ومواسمها كان له الفضل الأول فى نجاح الرى الحوضى في مصر .

وثمة عامل آخر هو طبيعة الإرساب النهري فى وادى النيل فهو دلتاوي بشكل عام ، بمعنى أن الأراضى تبلغ غاية ارتفاعها على ضفاف النهر ثم تنحدر تدريجيا فى الشرق والغرب نحو الصحراء وهى فى الوقت نفسه منحدرة نحو الشمال مع الانحدار العام لمجرى النهر ، وقد ساعد هذا علي وصول مياه الفيضان إلي أبعد الجهات على جانبي النهر ، وساعد على صرف هذه المياه فى سهولة بعد الإفادة منها فى الأحواض ، ومن ثم كان لكل مجموعة من الأحواض مصرف فى طرفها الشمالى يعود بالمياه إلى النيل .

لم يكن هذا النظام مقصوراً على جهات الصعيد ، بل كان يمتد إلى الدلتا ولكنه لا يشمل كل أراضيها ، بل يقتصر على الأجزاء الجنوبية منها ، والتى يحدها خط تقريبى يمر بالدلنجات ودمنهور وإيتاى البارود وشبراخيت ودسوق وقلين والمحلة الكبرى وطلخا والمنصورة والسنبلاوين وفاقوس وبردين وبلبيس ، أما شمال هذا الخط فارض مستوية السطح قد تنخفض أحيانا عن مستوي سطح البحر فتتكون فيها البحيرات والمناقع ويقترب

الماء الباطنى من السطح ، وهو ماء تزيد فيه الأملاح زيادة كبيرة تؤدى إلى فساد التربة ، فتفقد خصوبتها ، ولا يبقى من هذه المساحات الواسعة من أراضى البراري مناطق يمكن أن تجتذب السكان للإقامة فيها ، إلا ضفاف فرعى رشيد ودمياط وغيرهما من فروع النيل القديمة التى كانت ضفافها أشبه بواحات مستطيلة فى وسط تلك الجهات المقفرة .

شمل نظام الرى الحوضى إذن معظم أراضي مصر ، وكان منظر البلاد في موسم الفيضان ، أشبه ببحيرة عظيمة فى قلب الصحراء ، متوسط عمقها متر ونصف ، وتقطعها حوائط من التراب سميكة ، وفى وسط هذا الخضم تقوم القرى ، وكأنها الجزر فوق تلال خلقتها الطبيعة أو صنعها الإنسان ، ومن هنا كانت القرية المصرية منذ فجر تاريخها كتلة متراصة لا يفصل بين بيوت فلاحيها سوى الضيق من الشوارع والحارات ، وكانت القوارب هى وسيلة النقل بين القرى فى موسم الفيضان ، ويرتاح الفلاحون في هذا الموسم راحة تحتمها عليهم الظروف ، فإذا ما جفت الأرض عادوا إلى كدهم ونشاطهم يفلحون ويزرعون ، وما لهم إلا محصول واحد فى السنة أغلبه من الحبوب ، وربما زرعوا أكثر من محصول فى مناطق محدودة تشرف على ضفتى النهر ، أو تحصل على الماء من جوف

الأرض ترفعه السواقى والشواديف . وكان هذا مما يميز الدلتا عن الصعيد ، ففيها كانت تزرع بعض الغلات الصيفية ، برفع الماء لسقياها من فروع النيل والترع ، فمستوى ماء « التحاريق » في الدلتا أقرب لمستوى الأراضى الزراعية منه فى الصعيد ، ويحيط الفلاحون الأراضى التى تشغلها زراعات الصيف فى الدلتا بجسور من التراب تحميها من أن يغير عليها الفيضان .

وفى أواخر الحكم المملوكى كانت الحالة الزراعية فى مصر قد ساءت إلى حد بعيد ، وما كان سبب هذا إلا إهمال السياسة المائية ، فتركت الترع يتراكم فيها الطمى فيسدها ، وتقطع المياه جسورها فتغرق ماحولها ، وتجرى المياه فوضى بلاضابط فتصل إلى إقليم وتنقطع عن إقليم ، فإذا كان من حظ قرية أن وصل إليها شىء من ماء النيل تزاحم الناس بالمناكب ، وتقاتلوا فى سبيل الحصول على نصيب ، وهم على حق فالزراعة هى كل حياتهم ولا زراعة إذا شح الماء . ويستمر الحكام فى إهمالهم ، وتردم كثير من الترع وتبقى كذلك سنين ، وتتحول مساحات فساح من الأراضى التى عرفت بخصوبتها وجودتها إلى قفر لا يغل ولا ينتج .

ويرى علماء الحملة الفرنسية هذه الحال ، فيجمعون على أن نظام الرى بالوضع الذي شهدوه نظام فاسد يتطلب إصلاحا واسع

النطاق ، وتوضع المشروعات فقد كان ظن الفرنسيين أن يستقر بهم المقام ، ولكن الشعب المصرى الأبى يقوم بثوراته فى وجه الاستعمار ، وتعمل القوة الغاشمة على إخماد الثورة إنما قامت ، وتتعرض الأراضى الزراعية لحركات الجنود وما يتبعها من إتلاف المزروعات ، وتفشل الحملة الفرنسية وينتهى أمرها وتستفيد مصر الخالدة مما وضع الفرنسيون من خطط ومشروعات وكم من ضارة يكون من ورائها نفع عميم .

* * *

تسترد مصر إرادتها بطرد الفرنسيين ، ويكون من أهم أهداف النظام الجديد تغيير نظام الرى حتى تصبح المياه متوفرة طول العام فتغل الأرض أكثر من محصول واحد فى السنة ، وتتسع مساحة الغلة الصيفية الرئيسية وهى القطن الذي يبشر بمستقبل مرموق ، وتوضع أسس سياسة مائية جديدة تعنى بشق الترع وبناء القناطر وإنشاء الخزانات .

وتكون الخطوة الأولى حفر الترع الصيفية ، وهى ترع عميقة بحيث لا تجرى بمياه الفيضان وحدها بل وبمياه الصيف كذلك ، وهى في هذا تختلف عن الترع النيلية التى لا تجرى بالماء، إلا حينما ترتفع مناسيب النهر العظيم . ولابد أن تظل لهذه الترع

أعماقها إذا ما أريد منها أن تؤدى الغاية التى أنشئت من أجلها ، وهو امر يحتاج إلى مشقة وعناء ، فمياه الفيضان غنية بالرواسب ، تلقى بها فى قاع الترع فيرتفع القاع ويتطلب تطهيرا عقب كل فيضان ، ويلجأ الحاكم إلى تسخير أكثر من نصف مليون من الفلاحين يعملون لمدة شهرين فى كل سنة بلا أجر ، بعيداً عن قراهم وذوى قرباهم .

وطبيعي أن تكون الدلتا ميدان التجربة الأولى ، فيشرع فى تحـويل أراضيها من الرى الحوضي إلى الري الدائم ، وتحفر بعض الترع الجديدة وتعمق الترع الموجودة لتدخلها مياه الصيف ، وتكون ترعة المحمودية أهم ترع ذلك العهد ، فهى فضلا عن خدمتها للرى يمكن أن تحي ميناء الإسكندرية بتوفير مياه الشرب طول العام ، وكانت الإسكندرية تعتمد فى فصل الصيف على مياه الآبار فما كان عدد سكانها يزيد على الأربعة آلاف ، ويمكن أن تحييها بربطها بالعاصمة بطريق ملاحى رخيص النفقات ، وتصدر الأوامر إلى حكام مديريات الوجه البحرى بان يورد كل منهم عددا من الرجال والمقاطف يتناسب مع عدد سكان مديريته . ويجمع ٤٠٠ ألف رجل ، ويحضر كل مأمور قسم أو شيخ قرية ما جمع من فلاحين

إلى مكان العمل ويتركهم المهندسون يعملون فى الموقع الذى يناسبهم متجهين فى حفرهم نحو الإسكندرية بقدر الإمكان ، ويتبين أن الأجزاء المحفورة لا تتصل بعضها البعض ، فيوصل بينها بزوايا تجعل الترعة فى النهاية كثيرة المنحنيات والمنعطفات . ويتم افتتاح الترعة فى يناير سنة ١٨٢٠ .

وكانت هناك ترعة تصل بين فرعى دمياط ورشيد تحمل اسم ترعة الفرعونية وكانت تستقطع جزءاً كبيرا من تصرفات فرع دمياط فى فصل التحاريق وتحولها إلى فرع رشيد ، فتقل مياه الصيف فى فرع دمياط ، فلا تجد الأرض المعتمدة عليه حاجتها من الماء ، ويتيح نقص مياه فرع دمياط فرصة لمياه البحر فتتوغل فيه فى فصل الصيف إلى ما وراء فارسكور وتفسد مياهه بملوحتها فتصبح غير صالحة للشرب ولا للزراعة ، ويكون الرأى ان تردم هذه الترعة ليحتفظ فرع دمياط بمياهه الصيفية ويتم ذلك في سنة ١٨١٨ .

ولما كان فرع دمياط يغذى كثيراً من الترع التي تاخذ منه وتنتهى إلى فرع رشيد ، فقد فكر فى إقامة سد من الأحجار عند مدخل فرع رشيد حتى تتحول مياه الصيف كلها إلى فرع دمياط ، فتغذى الترع الصيفية الآخذة منه دون حاجة إلى تعميقها

كل عام ، ولكن هذه الفكرة لا تخرج إلى حيز التنفيذ ، إذ يرى الاستعاضة عنها بإقامة قناطر تتحكم فى تصرفات النهر فتطلق المياه كلها إلى فرع دمياط ، أو يصرف منها قدر إلى فرع رشيد .

ويبدأ فى تنفيذ مشروع القناطر فى سنة ١٨٣٣ ويصدر محمد على أوامره إلى مهندسه الفرنسى لينان دى بلفو بنزع حجارة الأهرام لاستخدامها فى بناء القناطر ، وكان من المحتمل أن تفقد مصر أثمن آثارها لولا أن وفق المهندس إلى إقناع تاجر الدخان بأن إقتلاع الأحجار الجديدة من محاجرها أقل نفقات من نزع أحجار الأهرام ، ويتعثر المشروع حتى ليعدل عنه محمد على فى بعض الأحيان ، وأخيرا يتم إنشاء القناطر في سنة ١٨٦١ ويتغير اسمها أكثر من مرة ، فهى قناطر فم البحر ثم قناطر الدلتا ، ثم القناطر الخيرية فى آخر الأمر ، ويرتبط بإنشائها حفر ثلاث ترع كبرى هى رياح البحيرة لرى أراضى غرب الدلتا ، والرياح المنوفي لرى أراضى وسط الدلتا ، والرياح التوفيقى لرى الأراضى الواقعة فى شرق فرع دمياط :

ولا يكاد يبدأ الحجز على القناطر حتى يتصدع فرشها ، وتظهر عاجزة عن تأدية الغرض التى أنشئت من أجله ، ويصرف

النظر عن استعمالها استعمالا كاملا إلى حين ، ويحتفظ بالطريقة القديمة ، طريقة تعميق الترع وتطهيرها عقب كل فيضان ، وتتطلب تقوية أساس القناطر ثلاثين عاما ، فلا تصبح صالحة للاستعمال الكلى إلا فى سنة ١٨٩١ . ويصبح من السهل رفع منسوب الماء أمامها إلى أربعة أمتار فوق المنسوب الطبيعى ، ولكن زيادة التوسع فى الزراعة الصيفية واستصلاح الأراضى البور ، يحتم أن تدعم القناطر ، أو أن تنشأ قناطر جديدة ، ويؤخذ بالرأى الأخير ويتم إنشاء القناطر الجديدة فى سنة ١٩٤٠ .

أصبح الرى بعد إنشاء القناطر لا يتعرض للصعوبات التى كان يتعرض لها من قبل ، يوم أن كان من الضرورى أن تعمق الترع إلى حد يمكن من جريانها بالماء فى فصل التحاريق ، وكانت القناطر الخيرية أول عمل أقيم على النيل فى كل مجراه بقصد توفير المياه الصيفية ، وتحويل الرى الحوضى إلى رى دائم وقد تلاها وارتبط بها كثير من المشروعات تهدف كلها إلى نفس الغاية ، فأنشئت في سنة ١٨٦٠ ترعة الإسماعيلية ، بناء على اتفاق بين الحكومة المصرية وشركة قناة السويس ، بقصد إيجاد طريق ملاحى بين النيل والبحر الأحمر ومد المدن المنشأة فى منطقة القناة بالماء العذب الصالح للشرب ؛ وتخرج الترعة من

النيل مباشرة عند شبرا وتتبع حافة الصحراء حتى وادى الطميلات ثم تسير مشرقة حتى مدينة الإسماعيلية ، وقبلها بقليل تتفرع إلى فرعين، يسير أحدهما شمالا لتغذية بور سعيد والآخر جنوبا إلى السويس .

وتتبع الإسماعيلية فى أجزاء كثيرة من مجراها الطريق الذى كانت تسلكه القناة القديمة بين النيل والبحر الأحمر ، والتى حملت أسماء تعددت مع الأيام . فهى قناة سيزوستريس فى زمن الفراعين ، وهى قناة تراجان فى أيام الرومان ، وهى خليج أمير المؤمنين على عهد العرب والإسلام ، ولكنها وإن اختلفت أسماؤها ظلت فى كل العصور طريقا للتجارة ، له شأن يتحدث عنه التاريخ .

وثمة ترعة أخرى لعلها أطول ترع الرى فى العالم وهى ترعة الإبراهيمية التى تم إنشاؤها فى سنة ١٨٧٣ . وتخرج من النيل مباشرة عند أسيوط ، وتسير فى الأراضى المرتفعة القريبة من ضفة النهر لمسافة ٢٦٨ كيلو مترا. وكانت تغذى الأراضى التى فى شرقها ، أما أراضى الغرب فيفصلها سد طولى هو سد المحيط وهكذا أصبحت أراضى شرقى الإبراهيمية ، تتمتع بالرى الدائم بينما ظل الغرب،لايعرف سوى رى الحياض، وكان الغرض الأول

من حفر الإبراهيمية هو رى مزارع القصب التى تمتلكها الدائرة السنية . وقد مكنت الترعة من رى ٥٨٠ ألف فدان ريا صيفيا ، و ٤٢٠ ألف فدان ريا حوضيا ، أى أن الزمام المترتب عليها يربو على المليون فدان . وقد ارتبط بحر يوسف بهذه الترعة منذ سنة ١٨٧٤ فبعد أن كان يخرج من النيل مباشرة أصبح مأخذه من الإبراهيمية عند ديروط ، ويمر بمحافظات أسيوط والمنيا وبنى سويف ، ثم يترك أراضى الوادى عند اللاهون ليتجه غربا لرى محافظة الفيوم .

* * *

واتضح أن المياه التى تجرى فى النيل لا تكفى لبرنامج التحول إلى الرى الدائم ، واتجه التفكير إلى البحث عن سبيل للاحتفاظ بمياه النهر للإفادة منها فى توسيع الرقعة فيه من قبل ، وكانت الفكرة الأولى أن يخزن جزء من ماء الفيضان فى منخفض فى الصحراء قريب ليفاد منه عند الحاجة ، وعدل عن الفكرة لتبعث من جديد فى أواخر القرن الماضى حينما يقترح مهندس أمريكى فى سنة ١٨٩٢ استخدام وادى الريان كخزان ، ولكن الصعوبات المالية والسياسية تحول دون التنفيذ ، بيد أن نجاح القناطر الخيرية بعد تقويتها ، يشجع على التفكير فى استخدام

النهر نفسه كخزان ، بإقامة سد يحجز المياه أمامه فلا تنفذ منه إلا سداً لحاجة .

وما كان لمثل هذا السد أن يبنى إلا على أرض صخرية لا تسمح بمرور المياه من تحتها ، وما كان لمثل هذا السد إلا أن يكون طويلا حتى تكثر فيه العيون وتتباعد ، فتسمح بمرور مياه الفيضان المندفعة ، ويتوزع الضغط على البناء الطويل ، ولابد لمثل هذا السد أن يقام فى مياه غير عميقة حتى لا يكون ارتفاع البناء سببا فى ضعفه ، واقترحت منطقة جبل السلسلة لينشأ عليها السد ، ولكن عابها أنها من حجر رملى يتفتت بضغط كميات الماء الهائلة التى تخزن ، وفكر فى منطقة الكلابشة فطبيعتها صخرية ولكن عمق المجرى وضيقه عندها قلل من أهميتها ، فالعمق يضعف البناء ويكثر نفقاته ، والضيق يقلل من العيون فلا تقوى على مياه الفيضان ، وأخيراً استقر الرأى على أن يكون السد عند أسوان ؟ . . ويعترض علماء الآثار فالخزان سيغرق ثروة منها تقوم على جانبي النهر ، وسيختفى قصر أنس الوجود القائم على جزيزة ألفنتين ، ويعدل تصميم الخزان ويخفض مستواه من ١١٤ مترا إلى ١٠٦ متر بقصد إنقاذ أنس الوجود فلا ينقذ وتضر البلاد ، ويعترض المسئولون عن

الصحة ، فالخزان سيكون بحيرة كبيرة آسنة المياه قد تكون مصدرا للكثير من الأمراض ، وقد مضى على إنشاء السد ستون سنة وماجر على البلاد سوى الفائدة والخير العميم ، وقيل إن الخزان سيغرق أرضا ويشرد سكانا ، ولكن أى أرض هى ؟ قفر لا يغل تسكنه قلة من الناس يمكن تعويضهم إذا غمرت المياه أراضيهم .

وبدئ فى بناء الخزان سنة ١٨٩٨ واستمر العمل ثلاث سنين ، وملئ لأول مرة سنة ١٩٠٣ ، وكانت سعته ١٫٠٦٥ مليار متر مكعب على منسوب ١٠٦ م فوق سطح البحر ، ولو لم ينزل على رأى الأثريين وكان التخزين على منسوب ١١٤ م كما كان مقترحا لتضاعفت سعة الخزان ، وتظهر حاجة مصر إلى الماء بعد سنوات ، ويبدو الخزان الكبير صغيراً ، فترى تعلية السد فى سنة ١٩١٢ إلى ١١٣ م ثم يعلى مرة أخرى فى سنة ١٩٣٣ ليصل إلى منسوب ١٢١ م ولتصبح سعة الخزان ٥٫٣٨ مليار متر مكعب من الماء وتكون هذه التعليات أشبه برقع فى البناء الكبير، وما كان أغنانا عنها لو رفعنا السد فى أول الأمر إلى أقصى ما يمكن أن يبلغه .

ويرتبط تخزين الماء فى أسوان بمشروعات شق الترع وإقامة

القناطر فتبنى فى سنة ١٩٠٢ قناطر على النيل عند أسيوط لتقوى ترعة الإبراهيمية ثم تعلى هذه القناطر فى سنة ١٩٣٧ لتسد الحاجة المتزايدة إلى الماء فى مصر الوسطى ، وتنشىء فى نفس السنة (١٩٠٢) قناطر زفتى على فرع دمياط بعد أن يكون قد قطع نصف المسافة إلى البحر ، فتزيد من مياه الرى فى وسط الدلتا وشرقها على السواء . وفى سنة ١٩٠٨ تقام قناطر إسنا على بعد ١٦٠ كيلو مترا شمالى أسوان لتحسين رى الحياض فى محافظة قنا أثناء الفيضانات المنخفضة ، وتم فى سنة ١٩٣٠ إقامة قناطر عند نجع حمادى فتحول بعض الأراضى على جانبى النيل من الرى الحوضى إلى الرى المستديم .

وبرغم هذا كله ظهر أن مصر لا تزال بحاجة إلى الماء فى فصل الربيع ، وبات واضحا انه لابد من اتخاذ وسيلة اخرى لتخزين المياه ، وكان سد أسوان بعد تعليته مرتين قد أصبح غير صالح لإرتفاع جديد ، وكان هناك مشروع يرجع العهد به إلى سنة ١٩٢٠ حينما اقترح المهندسون إنشاء سد على النيل الأبيض عند جبل الأولياء ، وينظر إلى المشروع بعين الريبة فهو كثير النفقات والتكاليف وهو فى أرض يسيطر عليها مستعمر غير صديق ، ويعدل المشروع فى سنة ١٩٢٥ لتقل

نفقاته ولكن تبقى المشكلة السياسية خصوصا وقد ساءت العلاقات بين مصر وبريطانيا المسيطرة على السودان في أواخر سنة ١٩٢٤ ، ويتعطل المشروع سنوات ثم يخرج إلي حيز التنفيذ في سنة ١٩٣٢ ويتم إنشاؤه ويملأ للمرة الأولي في سنة ١٩٣٧ ويكون من أطول الخزانات في العالم ويعمل كحوض موازنة بين منابع النهر الإستوائية ومنابعه في هضاب الحبشة ، ويبدأ تفريغ الخزان في شهر فبراير من كل سنة ، فلا يحل مايو حتى يكون الماء المخزون قد صرف كله فتستفيد منه مصر قبل أن تبدأ في استخدام المخزون من الماء أمام سد أسوان .

وكان فرعا رشيد ودمياط تقام على مصباتهما سدود ترابية عند نهاية فيضان النيل لتمنع دخول مياه البحر الملحة إليهما ولتحفظ المياه التى تتجمع بالرشح فى مجرى النهر فينتفع بها فى رى أطراف الدلتا الشمالية ، وقد رئى إنشاء قناطر تحل محل السدين اللذين يقامان بطرق بدائية كل عام ثم يزالان قبل كل فيضان جديد ، وقد تم إنشاء قناطر ادفينا على فرع رشيد سنة ١٩٥١ وستنشا أخرى في القريب على فرع دمياط عند فارسكور . وقد ساعدت قناطر ادفينا على ضمان ملء خزان أسوان إلى الحد الأقصى ذلك أن مستوى الماء أمام الخزان ، يعتمد إلى حد ما على مستوى

الماء خلفه وهذا بدوره يعتمد على كمية الماء التى تمر من مصب النهر ، وتجعلنا قناطر إدفينا فى مركز يسمح لنا أن نحدد مقدار الماء الذى يسمح بصرفه إلى البحر ويكون الغلق المبكر لهذه القناطر مساعداً لخزان أسوان فى بلوغ أقصى منسوب للتخزين.

* * *

وتثور مصر فى يوليه سنة ١٩٥٢، تثور على الفساد والطغيان وتثور على الاحتلال والاستعمار ، ويكون هدفها الأول خلق مصر جديدة ، مصر قوية عزيزة كريمة ، وهل تقوى البلاد إلا بزيادة الإنتاج؟ وهل يكون الشعب حرا عزيزاً إلا إذا ضمن مستوى المعيشة الكريمة ؟ وتتطلع الثورة إلى النيل الخالد، فتجده كالعهد به دائماً جوادا غير شحيح . ويخطط مشروع سد يفوق كل السدود ، ويختار له مكان لا يبعد عن سد أسوان إلا بستة كيلو مترات ، وتتعلق آمال مصر بالسد العالى ، وبما سيخزن من ماء ، إنه سيحجز جميع مياه النيل الزائدة عن حاجة الرى أمامه بما فى ذلك مياه الفيضان المحملة بالطمى والتى كان يجود بها النيل على البحر المتوسط فتضيع فيه هباء ، وإنه سيتيح لها فرصة الاستفادة بكل قطرة ماء يمكن أن تروى أرضاً وتسقى زرعاً ، فستكون سعة خزان السد العالى ١٢٥ مليار متر

مكعب ، وهى سعة ما أضخمها إذا قورنت بسعة خزان أسوان التى لا تزيد على الخمسة مليارات إلا قليلا ، وسيكون السد مصدراً للوقود الرخيص فسيزود بمحطات لتوليد الكهرباء تنتج نحو ستة مليارات من الكيلووات .

وتحشد مصر القوى والأموال والخبرة العالمية والمحلية لتحقق على النيل أكبر مشروع هندسى عرفه تاريخه الطويل ، ويرتاع الاستعمار فيساوم بالمال ، ثم يرفض التمويل وهو يظن أن مصر لا تزال على ما عهد فيها من ضعف وخور ، ولكن الشعب الذي تيقظ بعد طول سبات يسخر منه ومن ماله ، ولكن القائد الثائر المؤمن بامته يمضى فى طريقه لا يلوى على شىء ، ويكيل للاستعمار الضربة بعد الضربة ويبدأ فى التنفيذ تحدوه آمال كبار ، وإن الله على نصره لقدير .

مطابع دار القلم بالقاهرة